رد الأعجاز على صدورها
وأثره في فقه بناء المعنى القرآني

(سورة البقرة أنموذجًا)

الدكتور

محمد كامل علي النادي

مدرس البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
فرع جامعة الأزهر بالبحيرة

رد الأعجاز على صدورها وأثره في فقه بناء المعنى القرآني (سورة البقرة أنموذجًا)

محمد كامل علي النادي
قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بإيتاي البارود، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: mkelnady@azhar.edu.eg

ملخص البحث: يتناول البحث وجهًا خفيًّا من وجوه بلاغة القرآن الكريم، وأسلوبًا رائقًا من أساليب بناء معانيه، وهو ردُّ أعجاز المعاني على صدورها وكيف تكون سبلًا هادية إلى فقه المعنى القرآني وإبراز خفي مناسباته.

وردُّ الأعجاز على الصدور –بمعناه الأوسع عند المفسرين والمحدثين ونقدة الشعر الذي يتجاوز الجملة الواحدة إلى السورة القرآنية الكاملة– تكلَّم فيه السابقون من علمائنا –رضوان الله عليهم– كالإمام البقاعي والإمام السيوطي، تكلموا في ردِّ عجز السورة على صدرها فهو مطروق عندهم، ولكن غير المطروق الذي يكشفه البحث ويبرز دوره في فقه المعنى القرآني وإظهار خفي مناسباته هو ردُّ أعجاز معاقد معاني السورة ومعانيها الجزئية على صدورها، وكيف أنها علامات هاديات وسبلًا موصلات إلى استنباط مقاصد السور وأغراضها الكبرى.

الكلمات المفتاحية: بلاغة – البديع –العجز– الصدر– التناسب – الإعجاز البلاغي.

The Effect of Epanalepsis on Meaning Construction in the Holy Quran (Surat Al-Baqarah as a model)

Muhammad Kamel Ali El-Nady
Rhetoric and Criticism Department at the Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University Branch, Itay Al-Baroud, Arab Republic of Egypt.
E-mail: mkelnady@azhar.edu.eg

Abstract: The research deals with a hidden aspect of the Qur'anic rhetoric and a clear method of demonstrating its senses/meanings, namely "Epanalepsis", and how they become a means that guides to the Fiqh of the Qur'anic meaning and highlighting its cryptic harmony verses.

This term in its wide-ranging sense among the exegetes [*The Mufasroon*] and the people of Hadith, and the Poetry critics, that goes beyond the limits of one sentence to the whole Qur'anic surah was discussed by the earlier scholars [*may Allah be pleased with them*], such as Imam al-Buqai and Imam al- Suyuti and others. They discussed this topic, namely "Epanalepsis" [*Rddu Ajzi al-Surah Alaa Sadriha*] *in* general because it was familiar to them. However, the deep point that the research highlights is the consequence of Epanalepsis in understanding the Qur'anic meaning and disclosing its obscure harmony phrases. This process means linking the end of the Surah passages [*'ajaaz m'aāqid*] and its partial meanings with its beginning passages [*Sudūr*]. Furthermore, the research shows how they are the guidance signs and paths leading to the deduction of the major purposes of the Surah.

Key words: Rhetoric - Badia - Impotence - Chest - Proportionality - Rhetorical Miracles.

المقدمة

(ربِّ يسر وأعن)

الحمد لله في البدء وفي الختام، يسَّر بفضله الكشف عن سرٍّ من أسرار كتابه وأماط اللثام، وأعان بمنِّه على إيضاحه وتبيينه قدر استطاعتي غير مدِّع الكمال أو التمام، فله الحمد على الإلهام والعون والتيسير والاستخدام، وأدعوه -سبحانه- أن يستعملنا لخدمة دينه وكتابه ولا يستبدلنا ما مادام في النفسِ نَفَسٌ، وفي الأجل بقية، وفي العقل إلمامٌ وإلهام، والصلاة على حبيبنا وشفيعنا ومعلمنا وقدوتنا والسلام.

أما بعد؛

فكلام الحق سبحانه غضٌ لا تنقضي عجائبه، ولا تفنى أسراره وغرائبه، فعلى الرغم من تطاول القرون ومرور الأعوام والسنون فإنه مازال يجود بأسراره وعجائبه، ويبوح بخفاياه ودرره محاسنه.

وهذا البحث يرصد وجهًا خفيًّا من تلك الوجوه المستكنة، ويميط اللثام عن سرٍ كامنٍ من هذه الأسرار المستترة، ويبرز لونًا رائقًا من ألوان تناسبه وتلاؤمه، ويكشف نمطًا بديعًا من أنماط ائتلافه وتجانسه، وهو (ردُّ الأعجاز على الصدور)، ولست أقصد به هنا ذلك اللون البديعي اللفظي المحصور في ضيق الجملة من النثر أو البيت من الشعر؛ ولكن أقصد به ذاك الأسلوب الحر الطليق الذي يلف السُّوَر والمعاني الطوال يقارب بين أطرافها، ويلائم حدودها وأعطافها، ويلمح إلى مقاصدها وأغراضها.

وإذا كان في دراسات السابقين من سادتنا وعلمائنا -رضوان الله عليهم- حديث عن ردِّ أعجاز السور على صدورها كالإمام البقاعي الذي كانت له عناية شديدة به(١)، والإمام السيوطي الذي خصه بالتأليف(١)،

(١) في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، طبعة دار الكتاب الإسلامي

وحديثًا كشيخنا العلامة أ د. محمود توفيق(٢)، وشيخنا العلامة أ د. إبراهيم الهدهد(٣)، اللذين نبَّها على أهمية هذا اللون كأحد أهم روافد استنباط مقاصد السور وأغراضها العظمى، فإن هذا البحث يضيف إلى ذلك الجهد المبارك بُعدًا آخر، ويبرز لهذا الفن دورًا أهم وأعظم، فإنه يثبت أن ردَّ الأعجاز على الصدور في القرآن الكريم لا يقتصر وجوده على ردِّ آخر السورة على صدرها؛ ولكنه ركن أصيل من أركان بناء كثير من المعاني الجزئية للسورة ومعاقد معانيها، ولا تنحصر أهميَّته في كونه رافدًا من روافد استنباط المقصود الأعظم حين يُلمح إليه في البدء والختام؛ ولكنه فوق ذلك من أهم الوسائل الكاشفة عما خفي تناسبه وغمض تلاؤمه.

ومن أمانة العلم أن أقول: إن فكرة البحث كانت جوهرة مدفونة في تراث سادتنا وعلمائنا، ولكنها كانت تحتاج فقط لمن ينقِّب عنها ليستخرجها، فها هي قديمًا تومض في قولٍ للإمام الرازي – رحمه الله– حيث يقول: "اعلم أنه ﷻ لما استقصى في شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل ثم في شرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم **وختم هذا الفصل بما بدأ به** وهو قوله: (يا بني

بالقاهرة.

(١) في كتابه مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، قرأه وتممه: د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

(٢) في كتابيه: الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن ا د. محمود توفيق سعد، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، والعزف على أنوار الذكر، طبعة دار الكتب الجامعية الطبعة الأولى عام ١٤٢٤هـ.

(٣) في كتابه علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم، الطبعة الأولى لمكتبة وهبة عام ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

إسرائيل اذكروا نعمتي إلى قوله: ولا هم ينصرون)"(١)، وها هي حديثًا تبرق في قولٍ لشيخنا العلامة أ د. محمد أبو موسى –رضي الله عنه– حيث يقول في قوله تعالى: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾) [سورة غافر:٥٣] قال الشيخ: "والآية التي معنا هي آخر الكلام في قصة موسى وتوابعها المذكورة في السورة، وهي ردٌ ظاهر إلى صدر الحديث عن هذه القصة، وكلمة (وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ) المذكورة في أول القصة هي الهدى المذكور في آخرها، والقصة صدرها (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾) [سورة غافر:٢٣] وعجزها (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ) وتأمل تصاقب المباني والمعاني وبهذا التلاقي بين طرفيها طويت صفحتها من السورة"(٢)، ولكن كلامهما كعادة كلام العلماء لمحٌ ورمز وإيماء، وتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيُخرج كما يقول الإمام عبد القاهر، فكان حظ البحث وصاحبه أن ينقب عن تلك الظاهرة في كتاب الله ﷻ ويتتبع مواقعا، ويعرض لها نموذجًا في سورة البقرة ليبين قيمتها في خدمة المعنى وبيانه.

وحين أقول: إن رد الأعجاز على الصدور يُعدُّ أحد ركائز بناء المعنى وفقهه في القرآن الكريم فإني لا أقصد رد عجز السورة على مطلعها فحسب، بل أقصد كذلك رد أعجاز المعاني الجزئية ومعاقد معاني السورة على مطالعها، فإني باستقصائي لتلك الظاهرة القرآنية وجدت أن هذه المعاني وتلك المعاقد عادة ما تدور كذلك بين عجزٍ مردود على صدرٍ لفظًا ومعنى، فكما

(١) مفاتيح الغيب ٣٦/٤ للإمام فخر الدين الرازي، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٢) آل حم غافر وفصلت دراسة في أسرار البيان ص ١٩١، لشيخنا أ د. محمد محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

أن السورة القرآنية دائرة كبرى تختم بما به بُدئت، فإن معاقد المعاني وأجزاء المعاقد من المعاني الجزئية دوائر صغرى تختم بما به بدأت؛ ليصير غرض المعاقد والمعاني مكتنفًا بين طرفين صدر وعجز، لو تقفَّاها محسنُ التأملِ سليمُ التدبرِ لاستدلَّ بها على أغراضها التي توصلنا مجتمعة إلى مقصود السورة الأعظم بصورة أدق وأضبط؛ لأنها لبنات بنائه وعناصر صورته وهيئته، وفوق ذلك لأعانه تحديد مواقع بدء المعاني الجزئية ونهايتها على فهم ما غمض من آيات خفيت ملاءمتها ودقَّت مناسبتها لسياقها حتى نُسبت –ظلمًا– للنسخ أو الاستطراد عند كثير من علمائنا –رضوان الله عليهم–، وهي من عين المحكم وصميم المتناسب المتلائم. على أني سأزيد هذا الأمر بيانًا وتمثيلًا في المبحث الأول –بإذن الله.

لكن خلاصة ما أحب أن أنبه عليه هنا أن هذا البحث يثبت أن ردَّ أعجاز المعاني على صدورها في القرآن الكريم أحد أهم طرائق أو قل ركائز بناء معانيه، وأحد أعظم الوسائل المعينة على استنباط مقاصد السور، وأحد أجلِّ الروافد الهادية إلى فقه ما خفي تناسبه ودقّ تلاؤمه.

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يخرج في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، في المبحث الأول أصَّلت للمصطلح وبيَّنت الفكرة مدللًا ومبرهنًا، وفي المبحث الثاني حررت المقصود الأعظم لسورة البقرة، ثم تقفَّيت تلك الظاهرة القرآنية في السورة شارحًا وموضحًا، وفي المبحث الثالث بيَّنت دور رد الأعجاز على الصدور في فقه خفي مناسبات السورة وفي الخاتمة رصدت أهم نتائج البحث وتوصياته.

اللهم إن هذا جهدي وتلك طاقتي واستطاعتي، فإن كنت قد أحسنت فتقبل منى وأعني على خدمة دينك وكتابك، وإن كنت أسأت وأخطأت فعلِّمني وفهمني واستعملني ولا تستبدلني فلا حول ولا قوة لي إلا بك.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الإسكندرية في ١٤٤٢هـ/٢٠٢٠م

المبحث الأول

تأصيلٌ للمصطلح وبيانٌ للفكرة

صدر كل شيء أوله، وعجزه آخره، (وردُّ الأعجاز على الصدور) فنٌ بديعي حصره سادتنا البلاغيون في المحسنات اللفظية وعرفوه بقولهم: "هو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها"(١) يقصدون به رد لفظة في آخر البيت من الشعر أو الفقرة في النثر على أول البيت أو الفقرة، "ولكن المفسرين وشراح الحديث ونقدة الشعر بسطوا من دائرته، فلم يقيدوه بردِّ كلمة على أختها في الصدر؛ بل أدخلوا في هذا رد معنى في آخر البيان على معنى في أوله، جعلوا منه رد آخر بيت في القصيدة على أول بيت، بل آخر صورة شعرية ذات أبيات على صورة هي فاتحة القصيدة، بل رد غرض على غرض"(٢).

ورد الأعجاز على صدورها بهذا المعنى الرحيب الجامع هو ما أقصده في هذا البحث –كما قلت قبل–، فأنا لا أقصد المعنى الضيق المحصور في المحسنات اللفظية، بل أقصد ذاك الذي يلفُّ المعاني الطوال، ويحصرها بين معنيين أحدهما صدر الكلام وأوَّله، وثانيهما عجزه وآخره.

وكنت في سعة من أمري أن أسميه كما سماه بعض الباحثين (رد المقاطع على المطالع) أو (رد آخر الكلام على أوَّله)؛ ولكني آثرت المصطلح الأعرق والأشهر في كتب البلاغة ما دام المصطلحُ قادرًا على حمل هذا المعنى، ومادام له أصل في كلام سادتنا وعلمائنا المفسرين ونقدة الشعر،

(١) البديع لعبد الله بن المعتز ص ١٤٠ طبعة دار الجيل الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

(٢) علم البديع عند الشيخ محمد محمد أبوموسى، للعلامة الدكتور محمود توفيق سعد ص ١٣٣ طبعة مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

ومادام كذلك تعريف سادتنا البلاغيين يشمله حين قالوا: "هو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها"(١).

وهذا اللون البديعي بهذا المعني الجامع يُعدُّ أحد طرائق أو قل ركائز بناء المعنى وفقهه في القرآن الكريم، فلا تكاد تجد سورة في كتاب الله –عز وجل– إلا وقد ختمت بما به بدئت، مردودًا عجزها على صدرها، وهذا أمر تكلم فيه المفسرون –رضوان الله عليهم– وبيَّنوه كالإمام البقاعي الذي كان له "احتفاء بالغ بهذا، فقد رصده في جميع سور القرآن، بل هو يرد آخر القرآن على أوله، ويمضي يطبق هذا على عدة سور في آخره يردها على عدة سور في أوله"(٢)، بل أفرده بعضهم بالتأليف كالإمام السيوطي في كتابه (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع).

ورد عجز سور القرآن على صدورها من أعظم السبل الموصلات إلى فقه مقاصدها، ومن أهم الدلائل والروافد الهاديات إلى أغراضها؛ لأن السورة تبدأ بمطلع دال على مقصدها موحٍ بغرضها، ثم يتفنن القول فيما هو إلى المقصد بسبيل، ويتشعب إلى أغراض صغرى هي لبنات بناء المقصد الأسمى، ثم يعود المعنى إلى ما به بدأ؛ ليذكَّر السامع والقارئ بغرضه الأسمى ومقصده الأعظم، يقول الإمام البقاعي: "فليفتحوا طريق سورة من السور، وإن كانت في غاية الوجازة والقصر فإن كل سورة لها مقصدٌ واحد يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها، فترتب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه، وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل، استدل عليه وهكذا في دليل الدليل، وهلم جرًّا، فإذا وصل الأمر إلى غايته، ختم بما منه كان ابتدأ، ثم انعطف الكلام

(١) البديع لابن المعتز ١٤٠.

(٢) علم البديع عن الشيخ محمد محمد أبوموسى، للعلامة الدكتور محمود توفيق سعد ص ١٣٣.

إليه وعاد النظر عليه ..... وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرةً كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغُرِّ، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل"(١).

وبعبارة أخرى أقول: إن السور القرآنية – والطوال منها خاصة – تتكون من معاقد معانٍ هي أركان بناء المعنى العام للسورة أو مقصودها الأعظم، ثم إن تلك المعاقد تتكون هي الأخرى من معانٍ جزئية هي لبنات بناء المعقد، وبتدبُّري لكثير من معاقدِ معاني سور القرآن ومعانيها الجزئية وجدت أن هذه المعاقد وتلك المعاني كثيرًا ما تقع محصورة بين عجز مردود على صدر متفقين لفظًا ومعنى، فيُختم كل معنى بما به بُدئ، وجدت هذا شائعًا في كلام الحق –سبحانه– حتى يكاد يكون ركيزة من ركائز بناء المعنى فيه، وكأنها علامات وضعت لبيان مفاصل المعاني، أو إشارات هاديات لوجه بناء المعنى على المعنى.

ولتتبُّع تلك العلامات واستقصائها فائدتان عظيمتان:

الأولى: يعين على تحديد مقاصد السور تحديدًا أدق وأضبط، ويجعل للوصول إليها سننًا لاحبًا وطريقًا بينًا ظاهرًا؛ لأن تحديد مقاصد المعاني الثانوية بما حوته صدورها وأعجازها من دلالات وإشارات هادٍ بلا ريب إلى تحديد المقصد الأسمى والغرض الأعم الأعلى؛ لأن مقاصد الأجزاء لبنات لمقصد الكل.

الثانية: يرشد تتبعها إلى فهم ما خفي تناسبه ودقّ تآلفه وتلاؤمه، "فكم آية في كتاب الله تراها قد ضيمت حقها واستُلبت ماءها ورونقها فأُخذ بها في

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ١٤٩/١ طبعة مكتبة المعارف بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

مآخذ مردودة وحُملت على محامل غير مقصودة"(١) كما يقول الإمام السكاكي؛ لأن المتدبر لسياقها والمتأمل في وجه مناسبتها قد غفل عن هذه الإشارات ولم يتنبَّه إلى تلك العلامات، فنجد آية قد جُعلت مبتدأ لمعنى جديد وهي تمام الأول وكماله، وأخرى وقعت بين كلام متصل فلما خفي انتسابها إليه ودقَّ ائتلافها معه حُكم بأنها استطراد، أو قيل في تناسبها ما لا يخرج منه القارئ بمقنعٍ، وما ذاك إلا كما قلت لغفلة عين المتدبر عن تلك العلامات الهاديات.

١. **<u>فمثال ما جُعلت مبتدأ لمعنى جديد وهي تمام الأول وكماله:</u>**

قول الحق سبحانه: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [سورة البقرة:١٢٤] فكثير من سادتنا المفسرين جعلوها ابتداء معنى جديد كالعلامة الفخر الرازي – رضوان الله عليه– حيث قال: "شرع سبحانه هاهنا في نوع آخر من البيان وهو ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله، والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته"(٢)، والآية من تمام الكلام السابق وبقيته، كما سأبين هذا –بإذن الله– في موضعه من البحث.

(١) عبارة مأخوذة بتصرف من كلامٍ للإمام السكاكي قاله في سياق حديثه عن أهمية علم البلاغة لمن تصدى لتفسير كتاب الله –عز وجل–، ينظر مفتاح العلوم ٤٢١ ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

(٢) مفاتيح الغيب ٣٦/٤.

٢. ومثال ما وقعت بين كلام متصل وخفي انتسابها:

- الآيات الواردة في أحكام الأسرة في سورة البقرة (من نكاح وطلاق وعدة ونفقة ورضاع وغيرها) وهي مسبوقة بتشريع القتال ومعقبة بالحث على القتال كذلك، وسيأتي في البحث بيان جهة اتصالها وتناسبها مع سياقها.
- وفي غير سورة البقرة الآيات الواردة في سورة التوبة في النهي عن ولاية الكافرين وهي قول الله ﷻ: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤)[سورة التوبة:٢٣-٢٤]

والآيات التي بعدها التي تتحدث عن نصرة الله لنبيه في غزوة حنين وغيرها من المواقع فيقول –سبحانه: (لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧)[سورة التوبة:٢٥-٢٧].

فقد وقعت هذه الآيات بين كلام متصل، صدره ينهى عن السماح للمشركين بعمارة المسجد الحرام (مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم) [سورة التوبة:١٧] وعجزه يأمرهم صراحة بمنع المشركين كافة من دخول المسجد الحرام هي قول الله ﷻ: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨) [سورة التوبة:٢٨].

ولقد تعددت آراء سادتنا المفسرين في وجه مناسبة هذه الآيات لآيات منع المشركين من عمارة المساجد السابقة، فقال الإمام الرازي مثلًا: "ونقَلَ الْوَاحديُّ عن ابن عباس أنه قال: لما أُمر المؤمنون بالهجرة قبل فتح مكة فمن لم يهاجر لم يقبل الله إيمانه حتى يجانب الآباء والأقارب إن كانوا كفارًا، قال المصنف ﷺ: هذا مشكلٌ، لأن الصحيح أن هذه السورة إنما نزلت بعد فتح مكة، فكيف يمكن حمل هذه الآية على ما ذكروه؟ والأقرب عندي أن يكون محمولًا على ما ذكرته، وهو أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالتبري عن المشركين وبالغ في إيجابه، قالوا كيف تمكن هذه المقاطعة التامة بين الرجل وأبيه وأمه وأخيه، فذكر الله تعالى: أن الانقطاع عن الآباء والأولاد والإخوان واجب بسبب الكفر وهو قوله: إن استحبوا الكفر على الإيمان"(١)

وقال الإمام القرطبي: "ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين. وروت فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفرة. فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب، خوطبوا بألا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعا في سكنى بلاد الكفر..... لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأب لابنه والأخ لأخيه والرجل لزوجته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من تسارع لذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول: والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولا أنفق عليكم شيئا أبدا. ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون له: أنشدك بالله ألا تخرج فنضيع بعدك، فمنهم من يرق فيدع الهجرة ويقيم معهم، فنزلت" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان". يقول: [إن اختاروا] الإقامة

(١) مفاتيح الغيب ١٧/١٦

على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة." ومن يتولهم منكم" بعد نزول الآية" فأولئك هم الظالمون". ثم نزل في الذين تخلفوا ولم يهاجروا:" قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم"(١)

ولكن أعود فأتساءل كما تساءل الإمام الرازي: كيف يصح أن تكون الآيات نازلة في الذين تخلفوا عن الهجرة والصحيح أن السورة نزلت بعد الفتح؟!! ويقول الشيخ الطاهر: "وهذه السورة هي آخر السور نزولًا عند الجميع، نزلت بعد سورة الفتح، في قول جابر بن زيد، فهي السورة الرابعة عشر بعد المئة في عداد نزول القرآن..... والجمهور على أنها نزلت دفعة واحدة"(٢).

والذي يزيل هذا الغموض، ويكشف المناسبة واضحة جلية في هذه الآيات هو الذي قلته من (رد عجز الكلام على صدره) الدال على وحدة السياق، الموحي بغرض المعنى ومقصده، فلتراجع الآيات في ظل هذا المعنى وتحت عباءته ليُرى التناسب جليًّا واضحًا لا غموض فيه ولا التباس، فإن رد عجز المعنى على صدره لدليلٌ على أن ما بينهما من تمام المعنى وليس خارجًا عنه ولا هو انتقالٌ لمعنى جديد.

ولو تدبرنا هذا الموضع مرة أخرى بهذا الفهم وتلك القناعة لرأينا التلاؤم والتناسب والائتلاف والتجانس في هذه الآيات جليًا واضحًا، لا يحتاج وعيه إلى تكلُّف في ربطه أو تعسف في بيانه، ذلك أن الله –عز وجل– أراد

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩٤/٨، للإمام القرطبي، مراجعة وتعليق أ د. محمد إبراهيم الحفناوي، د. محمود حامد عثمان، طبعة دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(٢) التحرير والتنوير ٩٧/١٠ الناشر دار سحنون – تونس، الطباعة دار مصر للطباعة ١٩٩٧م.

أن يمنع المشركين من دخول بيته والاقتراب من حرمه، فبدأ سبحانه ببيان أمر العمارة مَن الحَقيقُ بها، الجدير بشرفها، ومن المتطفل عليها، المتجرّئ على ما ليس له، فبيَّن أنه لا يجوز ولا يليق أن تكون إلا لمن آمن به وليس لمن كفر وجاهر بكفره؛ ولكن لما كان التصريح بوجوب منع الكافرين من دخول مسجده قد يشقُّ على بعض المؤمنين لأن بعض من سيمنعونهم مَن بقي على كفره من آبائهم وإخوانهم وعشيرتهم، وشركائهم في تجارتهم قال لهم سبحانه: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤)[سورة التوبة:٢٣-٢٤] ليعلموا أن لا ولاية إلا لله، ولا حبَّ يسبق حبَّ الله وحبَّ رسوله وحبَّ الجهاد في سبيله.

ولئلا يظنوا أنهم بعداوتهم لأهليهم وعشيرتهم وشركائهم وحلفائهم أنهم يفقدون المنعة والعزة والقوة التي بها يُنصرون، ذكَّرهم أن لا عزَّ إلا في طاعة الله، ولا منعة ولا قوة إلا في جواره، ولا نصر ولا ظفر إلا منه، فذكَّرهم بيوم حنين إذ ظنوا أن لا غلبة لهم بعدما زاد عددهم وقويت شوكتهم، فاغتروا بقوّتهم وأعجبتهم كثرتهم حتى قال قائلهم: (والله لن نغلب اليوم من قلّة) فلم تغن عنهم شيئًا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى ولوا مدبرين، ولولا فضل الله عليهم ومدده وجنوده التي لم يروها لما كتب لهم نصر ولا نجاة.

فبهذه الآيات التي بدت معترضة يعلِّمهم ربهم أن لا اعتماد ولا توكل إلا على الله، وأن آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وإن قويت وأموالهم وإن كثرت، لن تغني عنهم شيئًا إذا أرادهم الله بضر، أو أراد بهم رحمة.

وبعد أن يرسّخ الحق –سبحانه– هذه القناعة في نفوسهم –رضوان الله عليهم– وبعد أن تتشربها قلوبهم وعقولهم يأتيهم الأمر القاطع الجازم بوجوب صدِّ المشركين عن بيته وحرمه فيقول سبحانه: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨) [سورة التوبة:٢٨] فيعود المعنى لما به بدأ، فيُرد عجز الكلام على صدره، في تناسب رائق، وتلاؤمٍ جليٍّ ظاهر.

أرأينا كيف يكون رد الأعجاز على صدورها ركيزةً من ركائز بناء المعنى في كتاب الله عز وجل؟! وكيف يكون سبيلًا موصِّلا إلى فقه خفيٍّ تناسب آياته وتلاؤم معانيه؟!

وهكذا الأمر في أكثر معاني القرآن سورًا كانت أو معاقد معانٍ أو معانٍ جزئية، ترى السورة مهما طالت معانيها وكثرت آياتها تعود لما كان به البدء، فيكون ذلك من أعظم روافد استنباط مقصودها، ومن أجلِّ السبل الهاديات إليه، ثم ترى المعاني الجزئية ومعاقد المعاني –والأمر فيها أعجب وأغرب– مهما طالت وتشعب القول فيها؛ تمثيلًا أو استطرادًا تُردُّ إلى صدور معانيها ردًّا بينًا واضحًا جليًّا؛ لتهدي المتأمل إلى وجه بناء المعنى، وتعين المتدبّر على فقه وجه تناسبها وتلاؤمها، وكذا ترشده إلى فهم رتبة المعقد ودوره في أداء المعنى الكلي للسورة القرآنية.

ولما كان كلامي عن كون (رد الأعجاز على صدورها في كتاب الله ركيزة من ركائز بناء المعنى فيه) حكمًا يبغي الدليل، ودعوى تطلب البينة،

آثرت أن أثبت ذلك تطبيقًا على أطول سور القرآن وفسطاطه وسنامه وهي سورة البقرة، وفيما يلي بيانٌ لذلك وتوضيح.

المبحث الثاني

رد الأعجاز على صدورها في سورة البقرة

المطلب الأول

تحرير مقصود السورة

تعددت أراء علمائنا في مقصد سورة البقرة(١). حسب تعدد جهات تناسل المعاني في السورة عندهم، وتنوُّع وجوه تناسب آياتها ومعانيها في نظرهم؛ ويرجع هذا التعدد في جهات النظر إلى أمرين أولهما: المتدبِّرون أنفسهم–رضوان الله عليهم– من حيث تباينهم في حسن التدبر وسلامة التأمُّل، وثانيهما: يعود إلى المتدبَّر وهو القرآن، فإن من شأن البيان العليّ –كما يقول شيخنا الدكتور محمود توفيق–: أن "لا يمنحك وجهًا واحدًا من المعاني أو العطاء؛ بل هو يكنز لك في بيانه ضروبًا من معانى الهدى، ويدع لك الاجتهاد في استخراج ما يتوافق مع قدرك؛ تحريضًا على متابعة الاجتهاد في الاستنباط، وفي الوقت نفسه يدفع عنك غائلة الملل إذا ما أنت أخذت في كل محاولة اجتهادية ما أخذته في السابقة عليها، ولكنك إذا ما لقيت في كل مرة من فيض العطاء غير ما لقيت في التي قبلها أقبلت إقبال المتطلع التائق المؤمِّل، وفيه أن درجات العطاء تتعدد وتفاوت بتعدد المجاهدين في التدبر وتتفاوت بتفاوت أقدارهم"(٢).

(١) بدأت بتحرير مقصود السورة؛ لأنه سيكون متَّكئي في إثبات صحة تقسيمي لها إلى معاقد ومعانٍ جزئية، فكما يقول الإمام البقاعي: " من حقق المقصود منها عرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها".

(٢) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن ص ١٨٩.

فيرى **الإمام أبو جعفر أحمد بين الزبير الغرناطي** أن مقصود السورة: "بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذًا وتركًا، وبيان شرف من أخذ به، وسوء حال من تنكب عنه"(١).

ويرى **الإمام البقاعي** أن مقصودها: "إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليُتَّبَع في كل حال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه: الإيمان بالآخرة، ومداره: الإيمان بالبعث، الذي أعربت عنه قصة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغيب"(٢).

ويرى **بعض المحدثين** كصاحب الظلال، وواضعي التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أن مقصودها بيان منهج خلافة الله –عز وجل– في الأرض مقوماتها وأهلها(٣).

ويرى **الشيخ الطاهر بن عاشور** أن: "معظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم"(٤).

وبعد تدبُّري لتلك السورة، وتأمُّلي لأعطافها ومعاقد معانيها، واحتكامي لظاهرة رد الأعجاز على الصدور في فقه معانيها واستنباط مقاصدها –كما سأبين ذلك بعد– اطمأننت إلى أن مقصود السورة هو: **هداية الناس إلى**

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص ١٩٤ لابن الزبير الغرناطي، تحقيق محمد شعباني، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب عام ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعي ٩/٢.

(٣) يراجع في ذلك التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ٢٧/١ إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلَّم، طبعة جامعة الشارقة الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، والظلال ٢٨/١ طبعة دار الشروق الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٤) التحرير والتنوير ٢٠٣/١.

صراط الله المستقيم من الإيمان به وتقواه بقبول تكليفاته والامتثال لها أمرًا ونهيًا وهو قريب مما قاله الإمام الغرناطي وخارج من رحمه، ويبرهن على صحة هذا المقصد ويرجحه دلائل أهمها:

الدليل الأول: مطلع السورة وصدرها:

فقد دلَّ المطلع على هذا المقصد وأشار إليه حين اشتمل على أركان ذلك الإيمان وأهم مقوِّمات تلك التقوى.

- أما اشتماله على أركان الإيمان فهي المجملة في قوله: (ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ) والغيب هنا كل ما غاب عن إدراك حواس البشر ووجب الإيمان به لإخبار النبي -ﷺ- عنه، فالغيب هنا يشمل الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره كما جاء في الحديث، وهو ما أكده سبحانه بقوله: (وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤) [سورة البقرة:٤] فالآية أشارت إلى الإيمان بالله؛ لأنه هو المنزِل، وعلى الإيمان بالكتب؛ لأنها هي المنزَّل، وعلى الإيمان بالرسل؛ لأنهم المنزَّل عليهم، وعلى الإيمان بالملائكة؛ لأنهم الواسطة والوسيلة، ثم صرحت بالإيمان باليوم الآخر (وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ).
- وأما اشتمال المطلع على أهم مقومات التقوى التي هي "امتثال الأوامر واجتناب المنهيات"(١) فأنها ذكرت أهم التكليفات التي تجب عليهم امتثالًا لأمره -تعالى- وبها تتحقق التقوى في نفوسهم، وخصَّ منها التكليفات التي يستطيعها كل مؤمن، فلا تمنعه منها نفقةٌ لا يملكها، أو استطاعةٌ لا يطيقها، فقال: (ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣) فلا تجد هنا حجًّا أو صيامًا أو زكاة؛ وإنما تجد إقامة الصلاة وهي لا تسقط بحال عن أي مؤمن، والإنفاق مهما قلَّ أو تعددت صوره ليشمل

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٢٦

التبسم وغيره ليستطيعه كل مؤمن، فلم يقل سبحانه: (ويؤتون الزكاة) وإنما قال: (وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣)؛ لأن الزكاة تجب على الأغنياء فقط فلو ذكرت هنا لكانت شرطًا في بلوغ مرتبة التقوى ولكانت التقوى مقصورة على الأغنياء دون الفقراء.

الدليل الثاني: عجز السورة:

ومن أوضح الأدلة على صحة هذا المقصد كذلك خاتمة السورة، حيث ردت على صدرها حاملة المعنى نفسه، تمدح بالصفتين نفسيهما الإيمان والتقوى.

أما الإيمان ففي قوله سبحانه: (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ...الآية)، وأما التقوى ففي امتثالهم ما أمر وتركهم ما نهى، وقبولهم هديه بالسمع والطاعة في قوله: (وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥)، وتبرُّئهم من جحود نعمته أو عصيان أمره ونهيه، وقبولهم لجميع شرعه لهم، ورجاؤهم العفو عن زللهم وترك المؤاخذة على الخطأ والنسيان (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ).

ثم ها هم أولاء قد وعوا الدرس وبلغتهم الموعظة من عاقبة السابقين الذين تركوا طريق الهدى وجحدوا نعمة ربهم، وعصوا رسله؛ فنجدهم يدعون ربهم ألا يجعل عاقبتهم كعاقبة من ضلَّ ممن سبقهم (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٨٦) [سورة البقرة:٢٨٦].

الدليل الثالث: اسم السورة:

لما كان غرض السورة هداية الناس إلى تقوى الله -ﷻ- والإيمان به من خلال تبشيع فعلِ من رفض هداه وجحد نعمته، سُميت السورة بسورة البقرة؛

إشارة إلى قصة البقرة فيها وما تحمله من عبرة وعظة، فربنا يقول لنا: لا تكونوا عصاة معاندين في قبول هداي وفي تحمُّل تكليفاتكم وشرائعكم كبني إسرائيل الذين بلَغ بهم كفرهم وعصيانهم أن يجادلوا نبيَّهم حتى في ذبح بقرة.

ويرجِّح الاعتقاد أن هذا هو الغرض من تسمية السورة بالبقرة أنه لو كان غرض القصة بيان قدرة الله –ﷻ– على البعث وإحياء الموتى لكان مطلع ذكر القصة في السورة هو بداية أحداثها من قوله تعالى: (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾) [سورة البقرة:٧٢]؛ ولكن الله –عز وجل– بدأها من نهاية أحداثها؛ التي هي موضع العظة أقصد مجادلتهم لنبيهم ورفضهم تكليف الله لهم، لأن هذا هو الأهم في روايتها؛ ليأخذ المسلمون منه العظة ويعتبروا فلا يجادلوا نبيهم في تكليف، ولا يماطلوا رسولهم في أمر أو شرع.

الدليل الرابع: المعجم اللغوي لألفاظ السورة:

يقول شيخنا الدكتور محمود توفيق: "ومن الجدير بالملاحظة أنَّ كلمات الأسرة اللغوية إذا ما تكاثر تواردها في سورة ما كان في هذا آية على هيمنة ما تلتقي عليه تلك الكلمات دلاليًا على موضوع السورة، ذلك أنَّ حشد مفردات هذه الأسرة اللغوية وتَجْييشها في سورة واحدة لن يكون عملاً عقيمًا أو عابثًا، فهو تنزيل من عزيز حكيم عليم حميد. إذا نظرنا في سورة (البقرة) ألفينا أن في معجمها اللغوي كلمات قد تواردت على نحو لم يكن في غيرها، وهي مفردات تتناسل من رحم مقصودها الأعظم نجد أن مفردات (الإيمان) جاءت أربعًا وسبعين مرة، ومفردات معنى (التقوى) جاءت ستًا وثلاثين مرة، ومفردات (الهدى) جاءت ثلاثين مرة"(١) وشيوع هذه المفردات خاصة وكثرة ورودها في سورة البقرة دون غيرها يرجح ما ذهبت إليه من أن غرض السورة ومقصدها

(١) العزف على أنوار الذكر ص ٩٨.

الأعظم: **هداية** الناس إلى صراط الله المستقيم من **الإيمان** به **وتقواه** بقبول تكليفاته والامتثال لها أمرًا ونهيًا.

الدليل الخامس: تدبُّر آيات السورة ومعاقدها ومعانيها الجزئية:

ذلك أن السورة مكونة من معقدين من المعاني، استقل كل واحدٍ منهما بدورٍ في أداء ذلك المقصود، من خلال معان جزئية هي لبنات بنائه التي كوَّنت صورته وحددت ملامحه.

فالمعقد الأول: يمتد من أول السورة إلى قوله تعالى: (۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ) [سورة البقرة:١٧٧] وغرضه "دعوة الناس كافة إلى الإيمان بالله عز وجل واتباع هداه، وتهيئة نفوس المؤمنين منهم لقبول هديه واتباع تكليفاته وأوامره التي سيشرعها لهم في معقد السورة الثاني بتبشيع صورة من فرَّط في اتباع هداه سبحانه من بني إسرائيل، والتحذير من غدرهم ومحاولاتهم الطعن في الإسلام وحرصهم على صرف أتباعه عن دينهم.

والمعقد الثاني: يمتد من قوله تعالى: (۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ) [سورة البقرة:١٧٧] إلى نهاية السورة عند قوله تعالى: (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾) [سورة البقرة:٢٨٥].

وغرض هذا المعقد بيان ما شرعه الله –ﷻ– لعباده من عبادات ومعاملات تناسب هذا المجتمع الناشئ في المدينة؛ لأن سورة البقرة كما نعلم هي أول ما نزل في المدينة فيناسبها أن تكون تأسيسًا لمجتمعهم وإقامة لدولتهم، فشرع لهم الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد، وبيَّن لهم أحكام القصاص والنكاح والطلاق والرضاع والنفقة والإنفاق في سبيله وترك الربا وأحكام الدين.

فبعدما هيَّأهم في المعقد الأول بتبشيع صورة من ضلَّ وجحد وكفر، وبيَّن سوء عاقبة من غيَّر وبدَّل، أخذ في بيان ما شرعه لهم وما فرضه عليهم تفصيلًا؛ فيكون ذلك أدعى لامتثال أمره وأخْذِ ما شرعه لهم بعزم وقوة؛ لذا نرى من عجيب لطفه سبحانه بعباده وعظيم هديه لهم في هذا المعقد أنه كلما فرض عليهم شيئًا قد يشقُّ على نفوسهم أو يُخشى أن تقصر عنه هممهم، يعود فيذكرهم بتقصير من سبقهم وتفريطهم؛ لئلا يركنوا كما ركنوا، ولئلا يقابلوا شرعه بما قابله به المغضوب عليهم من بني إسرائيل؛ فيشحذ بذلك هممهم، ويقوي عزمهم.

- فعند فرض الصيام يقول: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣) [سورة البقرة:١٨٣]
- وعند دعوتهم إلى الثبات على الإسلام كافة وحذر الزيغ أو الزلل قال: (سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١)[سورة البقرة:٢١١]
- وعند حثهم على الجهاد يقول: (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦) [سورة البقرة:٢٤٦]

الدليل السادس: السياق التنزيليُّ:

سبق أن أشرت إلى السياق التنزيلي للسورة وأنها أول ما نزل في المدينة بعد الهجرة فيناسبها أن تكون تأسيسًا لمجتمعهم وإقامة لدولتهم، وليس شيء –والحال هذه– أهم من أن يدعوهم للثبات على الهدى وأن يرسَّخ فيهم أسسُ الإيمان والتقوى، وأن يحذرهم الضلال كما ضل جيرانهم من اليهود ممن يساكنونهم ويجاورونهم، وأن تُكشف لهم حقيقتهم وما يحملونه لهم من حقد

وحسد وضغينة؛ ليقبل المسلمون على التمسك بشريعتهم وإيمانهم غير آبهين بمن خالفهم أو طعن في دينهم أو حاول ردّهم عن إيمانهم، لذا كان السياق التنزيلي للسورة متوافقًا مع ذاك المقصد ومتناسبًا معه.

الدليل السابع: السياق الترتيلي:

وأقصد به ترتيب السورة وموضعها في المصحف المرتَّل ومناسبة مقصدها لهذا الترتيب، ذلك أن سورة البقرة أول سورة وردت في كتاب الله –ﷻ– بعد فاتحة الكتاب، وكونها أول ما يرد في كتاب الله يناسبه أن تكون بانيةً لمعتقد كل مسلم، حاويةً لأهم تكليفات هذا الدين وأركانه، داعيةً إلى التمسك بهدى الله –ﷻ–، والثبات على الإيمان به وتقواه؛ لذا فقد جمعت السورة **أركان الإيمان** التي هي أساس معتقده **وأركان الإسلام** التي هي أساس عبادته، فضلًا عن جمعها لأهم تكليفات هذا الدين من أحكام الجهاد والقصاص والنكاح والطلاق والنفقة والرضاع وكفالة اليتامى والإنفاق في سبيل الله وغير ذلك مما أوردته السورة مما يحقق التقوى في نفوس المؤمنين، والتقوى كما عرفها علماؤنا "امتثال الأوامر واجتناب المنهيات"(١).

وإلى غير ذلك من الأدلّة التي ترجّح المقصد الذي ذهبت إليه ويضيق المقام عن ذكرها، وفيما ذُكر غناء عن ذكر غيره في سياق هذا البحث، لئلا يصرفنا الأخذ في هذا عما أردنا بيانه ورصده وتتبعه من بيان أهمية رد الأعجاز على صدورها في بناء معاني القرآن ووفقه مقاصده وأغراضه.

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٢٦

المطلب الثاني

رد الأعجاز على صدورها في سورة البقرة

ما سبق كان بيانًا لمقصد السورة؛ لنبني عليه كلامنا الأهم في رد الأعجاز على صدورها في سورة البقرة كمثال لطريق مهمٍ من طرائق بناء المعنى في القرآن الكريم، ونبدأ الآن في بيان ما أردت فأقول: بناءً على هذا المقصد الذي رجَّحته بأدلته فإن سورة البقرة تتكون من أركانٍ تتعاون وتتضافر في إيصال هذا المقصد، ذلك أنها تتكون من: مطلع ومعقدين من المعاني وخاتمة، وينقسم كل معقد إلى ثلاثة معانٍ جزئية على ما يوضحه الشكل التالي:

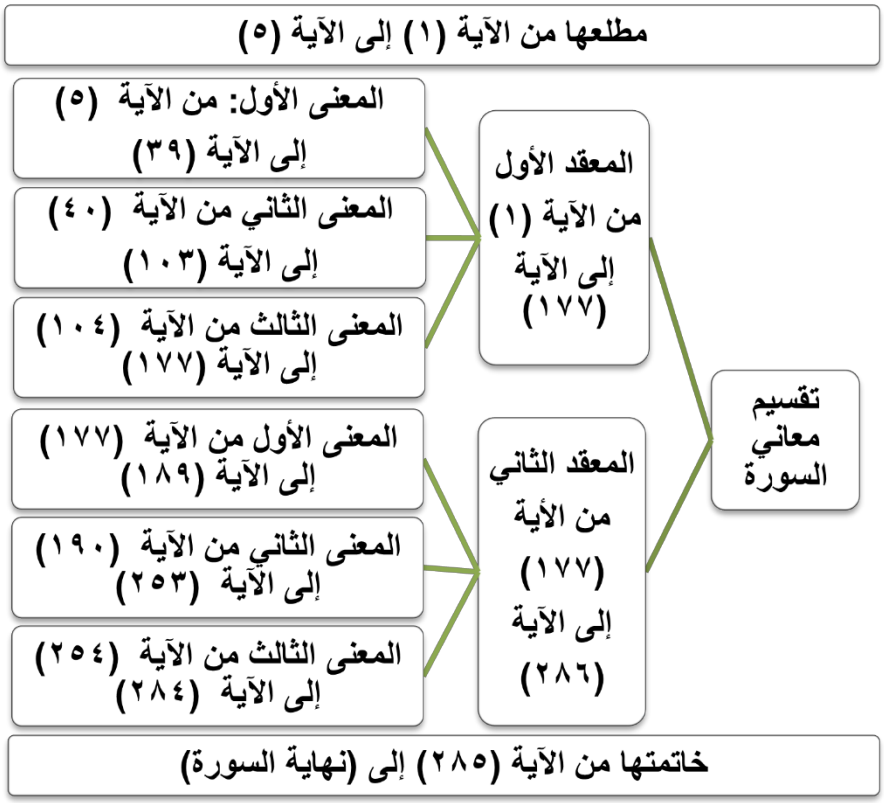

أولًا: رد عجز السورة على مطلعها:

صدر السورة ومطلعها قول الله عز وجلَّ: (الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥) [سورة البقرة:١-٥]

وعجزها وخاتمتها قوله سبحانه: (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٨٦) [سورة البقرة:٢٨٥-٢٨٦]

لا تخطئ عين القارئ فضلًا عن المتدبّر المتأمل المناسبة بين صدر السورة وعجزها، فقد افتتحت بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب وختمت بذلك مفصّلة المراد بالغيب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكذلك افتتاحها بالثناء على المتقين الذين يتبعون شرع الله عز وجل وتكليفاته فيقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم، وختامها باعتذارهم عن تقصيرهم في اتباع أوامره مبيّنين أن ما يقع منهم من تقصير –إن حدث– فليس جحودًا وكفرانًا كالسابقين من المغضوب عليهم من أهل الكتاب؛ وإنما نسيانًا أو خطأً، راجين عفوه –سبحانه– وغفرانه.

وعلى الرغم من أن ردُّ أعجاز السور القرآنية على صدورها أمر يحتاج لدراسة مفردة تظهر كوامنه وتكشف أسراره وتبيّن أثره في الكشف عن مقاصد السورة؛ فإني لن أقف معه كثيرًا هنا لأنه مطروق قبلًا؛ ولكني سأتوفَّر

على إظهار الأهم والأعجب –غير المطروق فيما أعلم– وهو رد أعجاز معاقد معاني السورة ومعانيها الجزئية على صدورها.

ثانياً: رد أعجاز معاقد السورة ومعانيها الجزئية على صدورها:

قلت: إن سورة البقرة مكونة من معقدين من المعاني، يستقلُّ كل معقدٍ منهما بدورٍ في تحقيق مقصودها الأسمى، ثم إن لكلٍ من هذين المعقدين معانيَ جزئية هي لبنات بناء المعقد تبيّن مقصوده وتوضِّح غرضه، ومن إعجاز النظم الترتيبي في سورة البقرة أن كل معانيها كلية كانت أو جزئية مؤسسةٌ على نظم بديع من ردِّ أعجاز المعاني على صدورها، سواء في ذلك معاقدها العامة أو معانيها الجزئية لا يشذ منها معنى من المعاني، وإن كان الأمر في بعضها أشد ظهورًا وبيانًا من بعض على ما يلي بيانه:

المعقد الأول ومعانيه الجزئية

من الآية (١) إلى الآية (١٧٧)

يبدأ هذا المعقد من أول السورة إلى ختام قول الله –ﷻ– (لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ) [سورة البقرة:١٧٧] التي وردت واسطة عقدٍ بين المعقد الأول والمعقد الثاني كما سيأتي بيانه، فبها ختم المعقد الأول ومنها بدأ المعقد الثاني.

غرض هذا المعقد ودوره في بناء مقصود السورة:

قلت: إن السورة معقدان، معقد يبني نفوس المؤمنين ويمهدها لقبول تكليفاته –سبحانه– وأوامره، وآخر يبيّن ما كلفهم به وما نهاهم عنه، وهذا المعقد الأول منهما المهيّئ لنفوسهم فغرضه "دعوة الناس كافة إلى الإيمان بالله –عز وجل– واتباع هداه، وتهيئة نفوس المؤمنين منهم لتقواه بقبول هديه واتباع تكليفاته وأوامره التي سيشرعها لهم في معقد السورة الثاني".

ردُّ عجز المعقد على صدره:

صدره قول الله عز وجل في صدر السورة: (الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ

فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥) [سورة البقرة:١-٥]

وعجزه قول الله عز وجل: (۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧) [سورة البقرة:١٧٧]

فلننظر إلى التطابق التام بين صدر الكلام وعجزه:

- فإذا كان قد بُدئ بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب فقد ختم بذلك مفصّلًا معنى الإيمان بالغيب فقال: (وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ).
- وإذا كان قد بُدئ بذكر إنفاقهم مما رزقهم الله فقد فصَّل لهم في عجزه مصارفها فقال: (وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ).
- وإذا كان قد ذكر صلاتهم هنالك فقد أعادها هنا فقال: (وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ).

ومن عجيب ذلك المعقد أن التناسب بين عجزه وصدره لا يقتصر على آية واحدة؛ بل إن هناك جملة من الآيات التي ذكرت في صدر المعقد، في المعنى الأول منه ثم أُعيدت بألفاظها ومعانيها في نهايته لتكون أعجازًا لصدور معانيها هنالك، فتكون بذلك علامات هاديات إلى بداية الكلام ونهايته، وسبلًا موصِّلات إلى وجه تناسب الكلام وتلاؤمه وائتلافه، وقد جمعت فيما يلي أعجاز تلك المعاني في آخر المعقد ورددتها إلى صدورها

من آيات مفتتحه على ما يلي بيانه:

- بدأ بالكلام في صدر السورة عن الكتاب الذي جاء هدى فآمن به المتقون وكفر به المشركون والضالون من أهل الكتاب، وختم به هنا، فقال –سبحانه– في صدر المعقد: (ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢) [سورة البقرة:٢]، وقال في العجز: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدِۭ ۝١٧٦) [سورة البقرة:١٧٦].
- تكلم في صدر المعقد عن الضالين من أهل الكتاب الذين اشتروا الضلالة بالهدى وختم بهم، فقال في الصدر: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝١٦) [سورة البقرة:١٦] وقال في العجز: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥) [سورة البقرة:١٧٥].
- تحدَّث في الصدر عن عنادهم، وتمسكهم بضلالهم وإصرارهم على اتباع هدى الله –ﷻ– وختم به، فقال في الصدر: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ۝١٣) [سورة البقرة:١١-١٣] وقال في العجز: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ۝١٧٠) [سورة البقرة:١٧٠]
- وصفهم هناك بفاقدي الحواس وختم بذلك فقال في صدر المعقد: (صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨) [سورة البقرة:١٨] وقال في عجزه: (وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ

عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾) [سورة البقرة:١٧١].

- دعا الناس في صدر المعقد لعبادته لأنه خالقهم ورازقهم ومدبّر أمورهم فهو الحقيق بالعبادة وختم بذلك، فقال في الصدر: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾) [سورة البقرة:٢١-٢٢] وقال في العجز: (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾) [سورة البقرة:١٦٣-١٦٤].
- نهاهم في الصدر عن اتخاذ الأنداد من دونه فقال في الصدر: (فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾) [سورة البقرة: ٢٢]، وختم بذكر عاقبة من فعل ذلك، فقال في العجز: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾) [سورة البقرة:١٦٥].
- حذرهم هناك من الشيطان عدوهم الأكبر الذي أغوى أباهم وأخرجه من الجنة، فقال في الصدر: (فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾) [سورة البقرة:٣٦]، وختم بتحذيرهم من اتباع خطواته، فقال في العجز: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى

ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩) [سورة البقرة:١٦٨-١٦٩].

وهكذا نرى صدر هذا المعقد من المعنى يتعانق مع عجزه في تناسب تام وتآلف كامل، يهتدي به المتأمل في كلام الله -عز وجل- إلى وجه اتصال المعانى وسبل بناء بعضها على بعض.

وقد قلت: إن هذا المعقد ينقسم إلى معانٍ جزئيةٍ ثلاثةٍ، هي لبنات بنائه، وأجزاء معناه، وفيما يلي عرضٌ لتلك المعاني، وبيانٌ لدورها في بناء غرض المعقد، وإبرازٌ لأثر رد الأعجاز على الصدور في بيان خفيّ تناسب آياتها.

المعنى الأول:

من الآية (٥) إلى الآية (٣٩)

وغرضه: دعوة الناس عامة إلى اتباع هدى الله -ﷻ- وبشارة من اهتدى منهم ونذارة من ضل وكفر.

وقد بدأ هذا المعنى ببيان ثواب من اتبع هدى الله عز وجل، وعقاب من ترك هداه وكفر، **وخُتم** بذلك، فرُدَّ عجزه على صدره ردًّا بينًا واضحًا:

فصدره قول الله ﷻ: (أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧) [سورة البقرة:٥-٧].

وعجزه قول الله ﷻ: (قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩) [سورة البقرة:٣٨-٣٩].

فما بين الصدر والعجز كلامٌ واحدٌ أفرغ إفراغًا واحدًا جيء به لغرض واحد، وقد جُعل الصدر والعجز دليلًا على أول المعنى وآخره، فإن خفي وجه المناسبة بين بعض آياتها فليس لأن الكلام قد انتقل إلى معنى آخر، أو

استأنف غرضًا جديدًا؛ ولكن لأن إدراك بعض التناسب يحتاج إلى فضل تأمل ومزيد تدبُّر، وسوف أبين في المبحث الثالث -بإذن الله- دور رد الاعجاز على الصدور في إبراز ما خفي تناسبه من تلك المعاني في السورة كلها.

المعنى الثاني:

من الآية (٤٠) إلى الآية (١٠٣)

وغرضه: عرض نموذج لمن هداهم الله -ﷻ- إلى صراطه المستقيم فأبوا إلا الضلال والجحود والكفران، وهم الكافرون من بني إسرائيل، فعرضت الآيات ما يبشِّع فعلهم في أعين المؤمنين، ويحقر صنيعهم؛ ليهيِّئ نفوس المؤمنين بذلك لقبول هداه واتباع تكليفاته؛ رغبًا ورهبًا.

وقد بدأ هذا المعنى بما ختم به فبدأ بدعوة بني إسرائيل لتقوى الله ﷻ والإيمان به، **وختم** بما ينعى عليهم ترك الإيمان والتقوى كذلك:

فصدره قول الله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾ [سورة البقرة:٤٠-٤١].

وعجزه قول الله ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٣﴾ [سورة البقرة:١٠٣]

وكأنَّ أمر هدايتهم ونجاتهم كان محصورًا بين إيمان وتقوى لله -ﷻ- باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وهو عين مقصود السورة وغرضها الأسمى الذي سبق الكلام عنه؛ لذا قلت إن عرض هذا النموذج ممن ضل من السابقين بعد هداية الله لهم ما جاء إلا تنفيرًا للمؤمنين من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه من غضب الجبَّار -سبحانه- عليهم وانتقامه منهم، وفيه تهيئة لنفوس المتقين لقبول شرعه واتباع هداه.

المعنى الثالث:

من الآية (١٠٤) إلى الآية (١٧٧)

وغرضه: تحذير المؤمنين من حقد أهل الكتاب والمشركين عليهم، وحسدهم إياهم، وحرصهم على إضلالهم، وتمنِّيهم لو ردُّوهم من بعد إيمانهم كفارًا، وتبيِّن للمسلمين أن ما حدث من أهل الكتاب عند تحويل القبلة من طعن في دينهم وتشكيك في نبيِّهم لهو أعظم دليل على هذا الحقد وذلك الحسد؛ ليحتاطوا لغدرهم وخسَّتهم، وليسيروا في طريقهم ممتثلين أوامره – سبحانه– غير آبهين بمن حاول صرفهم عن دينهم، ولا عابئين بمن طعن أو شكك في رسولهم أو كتابهم أو قبلتهم، فليست العبرة بجهة القبلة نحو المشرق أو المغرب وإنما العبرة بالاهتداء بهدى رب القبلة والإيمان به، يقول الشيخ الطاهر: "فهذا إقبال على خطاب المؤمنين بمناسبة ذكر أحوال أهل الكتاب وحسدهم المؤمنين على اتباع الإسلام مراد منه تلقين المسلمين الحجة على أهل الكتاب في تهويلهم على المسلمين إبطال القبلة التي كانوا يصلون إليها ففي ذلك تعريض بأهل الكتاب. فأهل الكتاب رأوا أن المسلمين كانوا على شيء من البر باستقبالهم قبلتهم فلما تحولوا عنها لمزوهم بأنهم أضاعوا أمرًا من أمور البر، يقول عدِّ عن هذا وأعرضوا عن تهويل الواهنين وهبوا أن قبلة الصلاة تغيرت أو كانت الصلاة بلا قبلة أصلًا فهل ذلك أمر له أثر في تزكية النفوس واتصافها بالبر؟!(١)

وقد التقى مفتتح هذا المعنى وعجزه في أكثر من موضع؛ ذلك أن عجز هذا المعنى يكاد يتعانق مع المعنى الأول كاملًا؛ لذا نجد عجزه يبدأ من الآية رقم (١٥١) إلى الآية (١٧٧) على ما يلي بيانه:

- **فقد بدأ** هذا المعنى بالتحذير من حقد أهل الكتاب والمشركين **وختم** بذكر

(١) التحرير والتنوير ١٢٨/٢.

عاقبة أهل الكتاب والمشركين، فقال –سبحانه في صدر المعنى: (مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥) [سورة البقرة:١٠٥] **وقال في العجز** في عاقبة أهل الكتاب: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩) [سورة البقرة:١٥٩] وقال: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤) [سورة البقرة:١٧٤] وقال في عاقبة المشركين: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥) [سورة البقرة:١٦٥] وغيرها من الآيات التي جاءت في بيان عاقبة كلا الفريقين في هذا المعنى.

- **ولما أجمل في صدر المعنى** الكلام عن الخير الذي أوغر قلوب أهل الكتاب والمشركين فقال: (مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥) [سورة البقرة:١٠٥] **فصَّل في عجزه** هذا الخير فقال: (كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١) [سورة البقرة:١٥١]
- **ولما تحدَّث في الصدر** عما سيلقونه من ابتلاءٍ بسبب حقد أهل الكتاب والمشركين عليهم، ومحاولاتهم صرفهم عن دينهم بالطعن فيه وصدهم عن سبيل الله، آمرًا لهم بالعفو والصفح عن ذلك حتي يأتي أمر الله

والانصراف إلى صلاتهم وعباداتهم فقال: (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾) [سورة البقرة:١٠٩-١١٠] **ختم سبحانه بمثل ذلك** حين أمرهم بالصبر والصلاة على البلاء، وحين عرَّفهم أن ما يلقونه من أذى ما هو إلا ابتلاء منه سبحانه فيجب عليهم الصبر حتى تأتيهم البشرى منه، فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَ�ٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾) [سورة البقرة:١٥٣-١٥٧]

- **ولما بدأ** هذا المعنى بالكلام عن تحويل القبلة وهو من جملة المراد بالنسخ والتغيير، فقال في صدر المعنى: (۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾) [سورة البقرة:١٠٦] ، **ختم بذلك فقال في العجز:** (۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ....الآية) [سورة البقرة:١٧٧] قال الإمام البقاعي: " (أَوْ نُنسِهَا) بأن نؤخر نسخها أو نتركه – على قراءة (نُنسِهَا) زمناً ثم ننسخها كالقبلة (نَأْتِ) عند نسخها (بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ)"(١)

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢/٩٤.

- **ولما بدأ** المعنى بذم أهل الكتاب الذين يكتمون الحق الذي يعلمونه، **فقال في صدر المعنى:** (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم **مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ**) [سورة البقرة:١٠٩] **ختم بذلك فقال في عجزه:** (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾) [سورة البقرة:١٥٩] وقال سبحانه: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾) [سورة البقرة:١٧٤].

المعقد الثاني للسورة ومعانيه الجزئية:

من الآية (١٧٧) إلى الآية (٢٨٦)

يبدأ هذا المعقد من قول الله -عَزَّوَجَلَّ- (لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ) [سورة البقرة:١٧٧] إلى نهاية السورة.

غرض هذا المعقد ودوره في بناء مقصود السورة:

غرض هذا المعقد بيان أهم ما شرعه الله -سبحانه- لعباده من عبادات ومعاملات؛ مناسبة لسياقها التنزيلي والترتيبي؛ تأسيسًا لمجتمعهم وإقامة لدولتهم وترتيبًا لأولويَّات عباداتهم، فجمع لهم في هذا المعقد الأركان الأساسية لهذا الدين من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد، وبيَّن لهم ما يحتاجون إليه من أحكام القصاص والنكاح والطلاق والرضاع والنفقة، وكذا الإنفاق في سبيله وترك الربا وأحكام الدين.

فبعدما هيَّأهم في المعقد الأول ببيان عاقبة من هداهم الله فجحدوا وكفروا وجادلوا أنبياءهم وغيَّروا وبدَّلوا، وبعدما أعطاهم بذلك العبرة والعظة، محذرًا من مخالفة أمره وترك تكاليفه وشرعه، أخذ في بيان ما شرعه لهم وما

فرضه عليهم تفصيلًا؛ ليكون ذلك أدعى لامتثال أمره وأخْذِ ما شرع بعزم وقوة، قال الإمام الغرناطي: "وهنا انتهى ذكر ما حذر منه ونهى عنه من أراد سلوك الصراط المستقيم، وبيان حال من حاد عنه وتنكبه، وظن أنه على شيء، وضم مفترق أصناف الزائغين في أصناف ثلاثة وهم: اليهود، والنصارى، وأهل الشرك.....ثم ذكر تعالى من أول آية "ليس البر" ما لزم المتقين لما بين لهم ما هو خروج عن الصراط المستقيم، وحذروا منها عقب ذكر ما يلزمهم، فابتُدئ من هناك بذكر الأحكام إلى قوله: "آمن الرسول " خاتمة السور، وفصل لهم كثيرا مما كلفوه"(١).

رد عجز المعقد على صدره:

بدأ هذا المعقد بمثل ما ختم به، فبدأ بما يجمع أركان الإيمان والإسلام وكثيرًا من تكليفات هذا الدين إجمالا، وختم بذلك.

فصدره: (۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾) [سورة البقرة:١٧٧]

وعجزه ختام السورة عند قول الحق سبحانه: (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ١٩٣

رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦) [سورة البقرة:٢٨٤-٢٨٦]

وآية ليس البر واسطة عقدٍ بين معقدي السورة، فكما كانت عجزًا يجمع ما صُدِّر به المعقد الأول وما حواه، ومرشدةً إلى الهدى الذي فرَّط فيه الضالون من أهل الكتاب قبلنا، جاءت كذلك صدرًا يحوي جِماع ما سيُشرع للمؤمنين في هذا المعقد، فلها وجهان من المعانى: وجه يولي شطر ما فات ينعى على الكافرين كفرهم ومخالفاتهم ونقضهم لعهد الله – سبحانه– ويُعرِّض بهم، ووجه يولي شطر ما هو آت يحثُّ المسلمين على مخالفة الزائغين عن الهدى ممن سبقوهم، ويدعوهم إلى كل برٍ، ويشجعهم على كل خير مما غفل عنه من كان قبلهم، على التفصيل التالي:

- **فإذا نظرنا إليها كعجزٍ للمعقد الأول وجدناها تُختم بما بُدئ به المعقد هناك وتُجمِلُ خلاصة ما مرَّ فيه من مواعظ وعبر من أحوال أهل الكتاب والمشركين، ففيها:**

١. ردٌّ لباطل أهل الكتاب وطعنهم في أمر القبلة (۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ).

٢. وفيها تعريضٌ بكفر أهل الكتاب وطعنٌ فيهم:

✓ فحين تقول الآية: (وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ) فإنها تعرِض بهم وبكفرهم بالله ورسله، السابق ذكره في مثل قوله سبحانه فيهم: (وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥) [سورة البقرة:٥٥] وبكفرهم بكتاب الله المنزل عليهم ونبذهم له، في مثل قوله: (وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ

ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾) [سورة البقرة:٨٩] وبعداوتهم لرسل الله وملائكته الوارد ذكرها في قوله: (قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾) [سورة البقرة:٩٧-٩٨]

✓ وحين تقول: (وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ) فإنها تعرّض بتضييعهم حق ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وسفكهم دمائهم، وتضييعهم صلاتهم وزكاتهم، ونقضهم عهود الله ومواثيقه في مثل قوله تعالى: (وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾) [سورة البقرة:٨٣]. وقوله تعالى: (وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾)[سورة البقرة:٨٤-٨٥]. ومثل قوله: (وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ) [سورة البقرة: ٩٣]، وقوله: (أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ

فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾) [سورة البقرة:١٠٠].

✓وغير ذلك كثير مما أومأت إليه الآية تعريضًا بهم وتسفيهًا لعقولهم وأحلامهم، وله دلالات وشواهد كثيرة في المعقد الأول.

٣. وفيها كذلك تعريض بالمشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا بالملائكة والكتاب والنبيين، الذين يتخذون من دون الله أندادًا وقد سبق ذكرهم في آيات المعقد: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾) [سورة البقرة:١٦٥]

٤. ثم إن في الآية تثبيتًا للمؤمنين وتسلية لهم على ما أصابهم وما سيصيبهم في سبيل دعوتهم مما لاقوه في أمر القبلة وما سيلقونه وهو أشد من ذلك وأعظم، فقال الحق لهم هنا: (وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾) فإنها إشارة لقوله هناك عند الكلام عن الابتلاء: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾) [سورة البقرة:١٥٣-١٥٧].

ومن عجائب أسرار العبارة القرآنية الذي يؤكد هذا المعنى ويقرره قطعُ الصابرين إلى النصب على الرغم من عطفها على مرفوع، لأن ماسبقها كان تعريضًا بأهل الكتاب، أما قوله: (وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ) فهي تنويهٌ بالمسلمين، أي أعني أو أخص الصابرين في البأساء والضراء فهم الأولى بأن يوصفوا بالبر والتقوى،

فلما كان ما سبق في الآية من صفات داخلٌ في الطعن في بني إسرائيل وموغلٌ في بيان نقائصهم، وكانت هذه الجملة تنويهًا بالمؤمنين وبيانًا لمثاليَّتهم، قُطع الكلام عن سابقه بيانًا للمغايرة والتباين بين الفريقين، فريق هدى الله وفريق حق عليهم الضلالة.

- **ثم إننا إذا نظرنا إلى تلك الآية كصدر لهذا المعقد الثاني وجدناها تُجمل للمسلمين أركان دينهم وثوابت إيمانهم ومعاملاتهم التي شرعها لهم ربهم، والتي سيعرضها عليهم تفصيلًا في هذا المعقد، ثم يختم بمثل ذلك.**

✓فهي تجمع لهم أركان الإيمان من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ) وهو ما يُختم به المعقد هناك.

✓وهي تذكر إجمالًا شطر أركان الإسلام التي كانت موجودة قبل نزول الآية من إيمان بالله وبالنبي -ﷺ- وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ)، وفي أثناء المعقد يرد فرض ما بقي من الأركان من صيام وحج، ويرد التأكيد على ما أجمل من صلاة وزكاة في مثل قوله: (حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾) [سورة البقرة:٢٣٨] وفي قوله: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾) [سورة البقرة:٢٧٧].

✓وهي تحثهم على الوفاء بعهد الله وميثاقه (وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ) وألا يقولوا: سمعنا وعصينا ولا يكونوا كمن نقض عهد الله بعد ميثاقه من أهل الكتاب، وأول عهوده واجبة الوفاء هي اتباع أوامره واجتناب نواهيه فيما كلفهم به وما نهاهم عنه؛ لذا تختم السورة

بتبرؤ المؤمنين من نقض عهده عمدًا أو مخالفة أوامره قصدًا (وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ).

- ✓ وتحثهم على الإنفاق في سبيله إجمالًا ثم تفصّله في ثنايا المعقد في مثل قوله: (يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢١٥) [سورة البقرة:٢١٥] وفي قوله: (وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠) [سورة البقرة:٢٢٠] وفي معنى كامل من هذا المعقد يبدأ من قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤) [سورة البقرة:٢٥٤].
- ✓ وتحثهم على القتال في سبيله والصبر على البأساء والضراء إجمالًا ثم تفصّله في ثنايا المعقد في مثل قوله: (وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١)[سورة البقرة:١٩٠-١٩١] وفي قوله: (كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦) [سورة البقرة:٢١٦] وفي قوله: (وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤)[سورة البقرة:٢٤٤].

وغير ذلك كثير مما حوته الآية إجمالًا وفصَّلته المعاني الجزئية للمعقد تفصيلًا، ثم ختم به مردودًا عجزه على صدره.

وقد أدى هذا المعقد مقصده بثلاثة معانٍ جزئية رُدت أعجازها جميعها على صدورها كذلك، في نظم بديع على ما سأبينه فيما يلي، مبرزًا دور تلك المعاني في بناء غرض المعقد، وأثر ظاهرة رد الأعجاز على الصدور في بيان خفيٍّ تناسب آياتها.

المعنى الأول:

من الآية (١٧٧) إلى الآية (١٨٩)

وغرضه: التعريض ببني إسرائيل في سياق التشريع للمسلمين ببعض الشرائع والأحكام التي حرَّفها بنو إسرائيل اتباعًا لأهوائهم وشهواتهم، وفي ذلك تخلص رائق بديع، فحين وقع هذا المعنى بين معقدي السورة الأول الذي يبين ضلال أهل الكتاب ويحذر منهم والثاني الذي يشرِّع للمسلمين ويكلف ويوجِّه، يجيء هذا المعنى مازجًا بين التبشيع والتشريع، التبشيع والتعريض بالمفرِّطين في هدى الله والتشريع والتوجيه للمهتدين من المؤمنين، على ما سيأتي بيانه.

وقد رُدَّ عجز هذا المعنى كذلك على صدره في نظم عجيب، وبيان بديع **فصدره:** قوله عزَّ وجلَّ: ﴿* لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [سورة البقرة:١٧٧].

وعجزه: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٩]

فبدأ ببيان حقيقة البرّ والتقوى وختم به، ذلك أن أهل الكتاب لما اتَّخذوا أمر تحويل القبلة مدخلًا للطعن في الإسلام؛ ضلالًا وبهتانًا، ومحاولةً لصرف الناس عن دينهم وردِّهم إلى الكفر بعد إيمانهم، مع علمهم أن ما عليه المسلمون هو الحق من عند ربهم، جاءت آية ليس البر لتعرِّض بهم

وبضلالهم وتحريفهم، مبيّنة أن البر ليس في اتباع القبلة وتضييع كل ما عداها من أحكام الشرع وتكليفات الدين؛ (وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ .... الآية) ثم جاءت تتمة المعقد تشريعًا للمسلمين ببعض الشرائع التي فرّط فيها اليهود وبدَّلوها عن وجهها زورًا وضلالًا وبُهتانًا.

وكنت دومًا أتساءل عن وجه اختيار تلك الأحكام خاصة لبدء التشريع بها، فلماذا يبدأ التشريع كله بتشريع القصاص دون أركان الدين الأساسية؟ وعلى الرغم من وجاهة ما قاله سادتنا المفسرون من أن السر في ذلك هو (الحث على حفظ النفس، وحفظ النفس من أعظم مقاصد الشريعة التي جاء الإسلام ليقررها)؛ فإن ذلك ما كان يروي غلتي، وما كنت أراه السبب الأوحد لذلك مع أهميته، حتى وقع في رُوعي أن في ذلك البدء –فوق ذلك– تعريضًا وطعنًا في أهل الكتاب؛ لأن تلك التشريعات والأحكام المبدوء بها مما فرَّط فيه أهل الكتاب وبدلوه وحرَّفوه عن وجهه.

فإذا كان أهل الكتاب بطعنهم في المسلمين عند نسخ القبلة وتحويلها قد اتبعوا طريقة (رمتني بدائها وانسلَّت) فإن تلك الأحكام والتشريعات التي ساقها المعنى هنا للمسلمين جاءت طعنًا في أهل الكتاب وتعريضًا بهم على طريقة (إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة)، وهاك البيان.

١. بدأ –سبحانه– بحكم القصاص لأن أهل الكتاب حرَّفوا أمر التوراة في القصاص وبدَّلوه واتبعوا نهج المشركين في التكايل في الدم والإيغال في القتل، مخالفين بذلك صريح قول الحق –سبحانه– في سورة المائدة: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾) [سورة المائدة:٤٥] يقول الإمام البقاعي: "ولما كان أهل الكتاب قد

بدلوا حكم التوراة في القصاص الذي أشير بآية المائدة إلى أنه كتب عليهم العدل فيه، فكان من كان منهم أقوى جعل لقومه في ذلك فضلاً، فكان بنو النضير –كما نقله ابن هشام في السيرة– يأخذون في قتلاهم الدية كاملة، وبنو قريظة نصف الدية وكان بعضهم –كما نقله البغوي في سورة المائدة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما– يقتل النفس بالنفس أشار سبحانه وتعالى إلى مخالفتهم في هذا الجور"(١).

وروى الشيخ الطاهر عن السدي قوله: "كان بين قريظة والخزرج حلف، وبين النضير والأوس حلف، في الجاهلية وكانت النضير أكثر وأشرف، فكانوا إذا قتل قرظي نضيريًا قتل به وأخذ أهل القتيل دية صاحبهم بعد قتل قاتله، وكانت الدية مائة وسق من تمر، وإذا قتل نضيري قرظيًا لم يقتل به وأعطى ديته فقط: ستين وسقًا. فلما أسلم نفر من قريظة والنضير قتل نضيري قرظيًا واختصموا، فقالت النضير: نعطيكم ستين وسقًا كما كنا اصطلحنا في الجاهلية، وقالت قريظة: هذا شيء فعلتموه في الجاهلية لأنكم كثرتم وقللنا فقهرتمونا، ونحن اليوم إخوة ودیننا ودینكم واحد"(٢).

٢. ثم ذكر الوصية للوارثين لأنهم حرفوا كذلك شرع الله في الوصية للوارثين بما يرضى طمعهم ويشبع جشعهم، فكان اليهود كالمشركين يأكلون حق النساء في الميراث بنتًا كانت أو زوجة أو أختًا، وكانوا من باطلهم لا يورثون البنات إذا وُجد الابن الذكر أو ابن الابن أو حتى بنت الابن، فلو لم يوجد الذكر فلا ترث البنت إلا إذا تزوجت من القبيلة نفسها ضمانًا لاستيلائهم على المال وعدم خروجه من بين أيديهم، وكذا الأخت لا ترث في وجود الأخ الوارث، ولا حق للزوجة في مال زوجها إلا النفقة عليها مدة بقائها في بيت زوجها بين أبنائها بعد

(١) نظم الدرر ٣/٢٤.
(٢) التحرير والتنوير ٥/١٠٢.

وفاته فإن رجعت لبيت أهلها فلا حق لها، وغير ذلك كثير من الصور التي حرفوها وبدلوها في شرع الله ﷻ في المواريث(١).

٣. ثم ذكر سبحانه الصيام قائلًا -جل من قائل-: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣) [سورة البقرة:١٨٣] فوق ما فيه من تشريع للمسلمين تعريض بأهل الكتاب كذلك؛ لأنه كان مما كتموه وأخفوه، قال الإمام البقاعيُّ: "(كَمَا كُتِبَ) أي فرض، فالتشبيه في مطلق الفرض (عَلَى ٱلَّذِينَ) وكأنه أريد أهل الكتابين فقط، وأثبت الحال فقال: (مِن قَبۡلِكُمۡ) فيه إشعار بأنه مما نقضوا فيه العهد فكتموه حرصاً على ضلال العرب"(٢).

٤. ثم ذكر -ﷻ- أكل الأموال بالباطل لأنه مما فشا فيهم وشاع، قال البقاعي: "فعل كذلك في المال الذي منه الأكل لأنه قد كان مما خان فيه أهل الكتاب عهد كتابهم واشتروا به ثمناً قليلاً كثيراً من أمره لا سيما تحريم الرشوة فإنهم أخفوه واستباحوها حتى صارت بينهم شرعاً متعارفاً"(٣).

٥. وأخيرًا ذكر سؤالهم عن الأهلة، والسائل هم اليهود كما قال الواحدي في أسباب النزول: "قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ تَغْشَانَا وَيُكْثِرُونَ مَسْأَلَتَنَا عَنِ الْأَهِلَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ".(٤).

---

(١) يراجع في ذلك: ١. نظام الأسرة فى اليهودية والنصرانية والإسلام ا د. صابر أحمد طه، طبعة نهضة مصر إبريل ٢٠٠٠م.
٢. المواريث في اليهودية والإسلام دراسة مقارنة د. عبد الرازق قنديل، طبعة مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة عام ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

(٢) نظم الدرر ٣/ ٤٤.

(٣) السابق ٣/ ٩٣.

(٤) أسباب النزول للواحدي ٥٣/١ تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدانالناشر: دار

وقد كثر كلام سادتنا المفسرين -رضوان الله عليهم- في جهة نظم هـذه الآيــة، ذاكرين أن المشركين سوى الحُمس منهم كانوا إذا أحرموا لا يدخلون بيوتهم من أبوابها وإنما ينقبون لهم نقبًا في ظهورها، وقال بعضهم: إن المسلمين في أول عهدهم كانوا يفعلون مثل ذلك ثم نهاهم الرسول -ﷺ- عن ذلك؛ ولكنهم لم يبينوا جهة المناسبة بين السؤال عن الأهلة وبين هذه القصة التي ذكروها، الأمر الذي توقَّف عنده الإمام الرازي قائلًا: "قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ الَّتِي رَوَيْنَاهَا فِي سَبَبِ النُّزُولِ، إلَّا أَنَّ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ صَعُبَ الْكَلَامُ فِي نَظْمِ الْآيَةِ، فَإِنَّ الْقَوْمَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي تَغْيِيرِ نُورِ الْقَمَرِ، فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ، وَهِيَ قَوْلُهُ: قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ فَأَيُّ تَعَلُّقٍ بَيْنَ بَيَانِ الْحِكْمَةِ فِي اخْتِلَافِ نُورِ الْقَمَرِ، وَبَيْنَ هَذِهِ الْقِصَّةِ،..... فَإِنَّ تَفْسِيرَهَا بِالْوَجْهِ الْأَوَّلِ يطرُقُ إِلَى الْآيَةِ سُوء التَّرْتِيبِ وَكَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّهٌ عَنْهُ"(١).

والأمر الذي أوقع أكثر سادتنا في هذا هو إجراؤهم للكلام على حقيقته، والذي أرجحه ما ذكره الإمام الرازي في قول نسبه للمتكلمين في معنى قوله تعالى: (وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ) من أن الكلام هنا على المجاز، قال الإمام: "الْقَوْلُ الثَّانِي: فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: (وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا) مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ ظَاهِرَهُ.....فَجَعَلَ إتْيَانَ الْبُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهَا كِنَايَةً عَنِ الْعُدُولِ عَنِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وَإِتْيَانَهَا مِنْ أَبْوَابِهَا كِنَايَةً عَنِ التَّمَسُّكِ بِالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهَذَا طَرِيقٌ مَشْهُورٌ فِي الْكِنَايَةِ فَإِنَّ مَنْ أَرْشَدَ غَيْرَهُ إِلَى الْوَجْهِ الصَّوَابِ يَقُولُ لَهُ:

الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.

(١) مفاتيح الغيب ٥/١٣٥.

يَنْبَغِي أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ وَفِي ضِدِّهِ يُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ إِلَى الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ قَالَ تَعَالَى: (فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) [آلِ عِمْرَانَ: ١٨٧] وَقَالَ: (وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ) [هُودٍ: ٩٢] فَلَمَّا كَانَ هَذَا طَرِيقًا مَشْهُورًا مُعْتَادًا فِي الْكِنَايَاتِ، ذَكَرَهُ اللَّهُ تعالى هاهنا"(١).

وهذا الوجه هو الأولى والأحق بالقبول وإن كان الحقيق بالأسلوب هنا أن يُجرى على الاستعارة التمثيلية وليس الكناية، وهو ما رجحه الإمام الألوسي حيث جعل الصورة من قبيل "الاستعارة التمثيلية بأن يكون قد شبه حالهم في سؤالهم عما لا يهم، وترك المهم بحال من ترك الباب وأتى من غير الطريق للتنبيه على تعكيسهم الأمر في هذا السؤال، فالمعنى وليس البر بأن تعكسوا مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك"(٢).

لطيفةٌ في ردِّ عجز هذا المعنى على صدره:

وحين قلت: إن هذا الرأي هو الأجدر بالقبول فإني أقصد إجراءه على المجاز؛ ولكني أري أن جهة إجرائه على المجاز مختلفة عن هذا المعنى القريب الذي ذكره الإمام الألوسي والإمام الرازي قبله مع صوابه، حين حصروا الصورة في النطاق الضيّق للآية المذكورة فيها، فإني أرى أن طرفي المجاز ليس هذا المعنى المحصور في الآية؛ وإنما طرفاه صدر المعنى هناك وعجزه هنا، أي ليس البر بأن تحصروا الدين في قبلة تولوا وجوهكم قِبَلها وتضيعوا كل ما عداها من أحكام دينكم؛ ولكن البر (مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ .... الآية)، فلا تكونوا كمن يأتون

(١) مفاتيح الغيب ١٣٥/٥.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي ٤٧٠/١، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

البيوت من ظهورها تاركين أبوابها، فاتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله، فشبه حالهم حين طعنوا في غير مطعن وتركوا أساس الدين وقوامه الذي فرَّطوا فيه بحال من أتى البيت من ظهره وترك الباب، فأتى من غير الطريق؛ خلطًا للأمور وتعكيسًا.

فقوله سبحانه: (وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا) كأنه معطوف على صدر الكلام هناك، أي: ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب وليس البر بأن تأتوا الأمور من ظهورها وتحرفوا الأشياء عن حقيقتها وأن تضيّعوا دينكم كله وتنقضوا عهد الله بعد ميثاقه ثم تقيموا الدنيا ولا تقعدوها حين يحوّل المسلمون قبلتهم بأمرٍ من ربهم تعرفون أنتم أنه الحق، فليس البر ما تهوّشون به (وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ).

المعنى الثاني:

من الآية (١٩٠) إلى الآية (٢٥٣)

وغرضه: عرض بقية تشريعات وتكليفات الدين الإسلامي التي يقوم على بيانها هذا المعقد، فإذا كان ما سبق في المعنى الأول تشريعًا ممتزجًا بتعريضٍ بأهل الكتاب وتوبيخٍ لهم وانتقاصٍ منهم، فإن تشريعات هذا المعنى خالصةٌ لخطاب المسلمين؛ بناءً لمجتمعهم وإقامة لدولتهم خارجيًّا وداخليًّا، أما خارجيًّا فمع أعدائهم وأما داخليًّا فمع أهليهم وأبنائهم وروابطهم الاجتماعية القائمة على النقاء والعفاف والطهر، فهي جملة من التشريعات التي تهدم باطل الجاهلية ودنسها وزيفها وظلمها وتبني على أنقاضه صرحًا شامخًا من الأحكام والشرائع المؤسسة على العدل والقسط والعفاف والطُهر في المعاملات، والعلاقات الاجتماعية والأسرية.

وقد بدأ هذا المعنى على عادة جُل المعاني القرآنية بمثل ما ختم به لفظًا ومعنى، **فصدره: تشريع قتال المشركين والحث عليه قال تعالى:** (وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ

﴿١٩٠﴾ [سورة البقرة:١٩٠] **وعجزه أمرٌ بالقتال كذلك وحث عليه:** ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾ [سورة البقرة:٢٤٤] **وبيان لمشروعيته والحكمة منه:** ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [سورة البقرة:٢٥١] ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ [سورة البقرة:٢٥٣].

لطيفةٌ في ردِّ عجز هذا المعنى على صدره:

من عجيب هذا المعنى أنه حصر الأحكام والتشريعات الأسرية بين الأمر بالقتال أولًا وآخرًا، وكأن الحق –سبحانه– يعلمنا أن المجتمع الإسلامي لابد من أن يكون مجتمعًا قويًا مترابطًا داخليًا في علاقاته الأسرية المبنية على العدل والإحسان والعفة والطُهر، وخارجيًا في معاملاته مع أعدائه المبنية على القوة والنديَّة وعدم الركون أو التهاون في دفع العدوان أو رد الاعتداء ولو كان الثأر ودفع الظلم في الشهر الحرام والبلد الحرام **﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾[سورة البقرة:١٩٣].**

وقد أدى هذا المعنى غرضه بثلاثة أقسام من المعاني **القسم الأول:** فيه الحث على القتال وتحبيبه لنفوس المؤمنين، **والقسم الثاني:** بيانٌ لجملة أحكام المعاملاتِ الزوجية والأسرية في الإسلام، من نكاح وطلاق وعدة ونفقة ورضاع، **والقسم الثالث:** عودةٌ للحث على القتال وبيانٍ لحكمة مشروعيته وضربٍ للمثل بمن تقاعس عن أمر الله به من بني إسرائيل شحذًا لهمة المؤمنين، وحثًّا لهم على بذل نفوسهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله.

القسم الأول:

من الآية (١٩٠) إلى الآية (٢١٨)

وغرضه: الأمر بالقتال ودفع اعتداء المشركين؛ نصرة للدين وإعلاء لكلمة الله وقد امتزج هذا التشريع بتشريع الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج(١)؛ ذلك لأن أداء الحج والعمرة في ذلك الوقت كان مشوبًا بتعرُّض المشركين لهم واعتدائهم عليهم ومنعهم من الوصول لبيت الله الحرام، وآيات هذا الموضع نزلت عام الحديبية -كما قال المفسرون- فقُدِّم بين يدي تشريع الحج والعمرة تشريع القتال بعدما ألمح -سبحانه- لتشريع الحج في الآية الأخيرة من المعنى السابق: (قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ)، قال الشيخ الطاهر: "وهو استطراد دعا إليه استعداد النبي -ﷺ- لعمرة القضاء سنة ست وتوقع المسلمين غدر المشركين بالعهد، وهو قتال متوقع لقصد الدفاع لقوله: (الذِيْنَ يُقَاتِلُونَكُمْ)"(٢).

وقد رُدَّ عجز هذا القسم كذلك على صدره فخُتم بمثل ما **بُدئ به** في نظم بديع -جلَّ مبدعه-، فقد ائتلفت معانيه تآلفًا رائقًا، وتعانق صدره وعجزه تعانقًا بيِّنًا ظاهرًا، على الرغم من أنه يحوي تشريعين من أعظم تشريعات الإسلام هما الحج والجهاد.

فقد تلاقي صدره وعجزه في أكثر من معنى على ما يلي بيانه:

أولًا: بدأ في الصدر بتعظيم حرمة البلد الحرام والشهر الحرام ونهْي المسلمين عن قتال المشركين فيه إلا في حال تعرُّض المشركين لهم، وختم كذلك بتعظيم حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وتحريم القتال فيه:

---

(١) بعد تشريع الرابع بذكر الصيام في المعنى السابق، وبعد ذكر الثلاثة الأولى في آية ليس البر.

(٢) التحرير والتنوير ١٩٩/٢.

فقال في الصدر:(وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١) [سورة البقرة:١٩١] **وقال –سبحانه–:** (ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤)[سورة البقرة:١٩٣]

وقال في العجز: (يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ) [سورة البقرة:٢١٧].

ثانيًا: في صدر المعنى بشَّع الفتنة وإرهاب أهل المسجد الحرام وإخراجهم من ديارهم وجعلها أشدَ وأعظمَ من القتل فقال –سبحانه–: (وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ) [سورة البقرة:١٩١].

وفي العجز كذلك جعل الفتنة وإخراج المسلمين من ديارهم والصد عن سبيل الله والكفر به أعظم وأكبر من القتل فقال: (وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ) [سورة البقرة:٢١٧].

ثالثًا: وفي الصدر حثَّ المسلمين على قتال المشركين حتى تباد فتنتُهم ويكونَ الأمرُ كله لله، فقال: (وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣) [سورة البقرة:١٩٣].

وفي العجز حذر المسلمين من التهاون في قتالهم؛ لأنهم لن يتهاونوا في قتال المسلمين وردِّهم عن دينهم إن استطاعوا فقال: (وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ)[سورة البقرة:١٩٣].

رابعًا: حثُّهم في الصدر على الإنفاق في سبيل الله فقال: (وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥) [سورة

البقرة:١٩٥]

وبيَّن لهم في العجُز بعض مصارف الإنفاق فقال: (يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢١٥) [سورة البقرة:٢١٥].

القسم الثاني:

من الآية (٢١٩) إلى الآية (٢٤٢)

وغرضه: تشريع أحكام المعاملات الزوجية والأسرية في الإسلام من نكاح وإيلاء وطلاق ورضاع وعدَّة ونفقة، وقد رُدَّ عجز هذا القسم على صدره كذلك.

فصدره قول الله عز وجل: (وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩)[سورة البقرة:٢١٩]

وعجزه قول الله عز وجل: (وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢) [سورة البقرة:٢٤١-٢٤٢]

جهات تناسب هذا القسم وائتلافه مع سابقه:

قد تعددت وجوه تناسب هذا القسم وتنوَّعت جهات تناسله من سابقه على ما يلي:

الوجه الأول:

ما ألمحتُ إليه سابقًا من أن الله –ﷻ– لما بيَّن لعباده أسس تعاملهم مع أعدائهم من وجوب صدِّ عدوانهم ودفع اعتدائهم ومعاملتهم بما يليق بهم من قسوة وقوة ونِدِّيَّة، ففرض لهم القتال؛ دفاعًا عن أنفسهم ونُصرة لدينهم، بيَّن لهم كذلك أسس تعاملهم في مجتمعهم الداخلي وفي بيوتهم مع أسرهم وأهليهم؛ ليؤسَّس مجتمعهم خارجيًّا على القوة والبطش والندية والمعاملة بالمثل مع أعدائهم، وداخليًّا على الرحمة واللطف واللين والرفق والعفو والتكافل

والبذل مع زوجاتهم وأولادهم وضعفائهم وفقرائهم؛ ليكون مجتمعًا صلبًا قويًّا خارجيًّا، ومترابطًا متينًا داخليًّا.

وإذا كانت الآيات تعلِّم المسلمين القوة والبطش والندِّيَّة في مواجهة أعدائهم فتقول: (وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ) وتقول: (وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ) وتقول: (وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١) وتقول: (ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ)، فإنها هي نفسها التي تعلِّمهم الرحمة واللطف واللين والرفق والسماحة والبذل والعفو في تعاملهم مع ضعفائهم ونسائهم وأهليهم فتقول: (وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ) وتقول: (ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ) وتقول: (وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ) وتقول: (فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ) وتقول: (وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦) وتقول: (وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٧) وتقول: (وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١). **فالله سبحانه أرادهم كما وصفهم: (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ) [سورة الفتح: ٢٩]**

الوجه الثاني:

من لطائف تناسب هذا القسم وتولُّده من سابقه: أنه –سبحانه– يعلم كره النفس البشرية –ومنها نفوس المؤمنين– للقتال حيث قال لهم في نهاية القسم السابق من المعنى (كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ) [سورة البقرة:٢١٦] ويعلم أن نفوسهم إنما تكره القتال لأحد سببين إما الخوف على ضياع ذراريهم وأزواجهم إن قُتل العائل، وإما الخوف على النفس من الهلاك

والموت، فلما علم ذلك منهم بعلمه الأزليّ –سبحانه– أراد أن يبدد خوفهم ويذهب خشيتهم ويبدلها إقدامًا وثباتًا، **فطمأنهم أولًا على ذراريهم** بأن أوصى الباقين بعدهم من إخوانهم باليتامى فقرائهم وأغنيائهم، فحصر آية كره القتال بين وصيتين:

الأولى: الوصية بفقراء اليتامى (يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥) [سورة البقرة:٢١٥].

والثانية: الوصية بأغنيائهم بالإصلاح لهم ورعايتهم ومخالطتهم: (فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠) [سورة البقرة:٢٢٠]

ثم أمر من بقي من المسلمين بنكاح المؤمنات –ولو كن إماءً– ليدخل فيه الترغيب في نكاح الثيّبات والأرامل، وبذلك طمأنهم على زوجاتهم وذراريهم فلن يضيّعهم الله أبدًا بعدهم.

ثم طمأنهم ثانية على أنفسهم لما علم أن بعضهم قد يُحجم خوفًا على نفسه الهلاك بأن بيَّن لهم جزيل الجزاء الذي أعده لهم؛ ليرغّبهم في بذل نفوسهم في سبيل الله ابتغاء رضوانه وحسنى جزائه (وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥) [سورة البقرة:٢٤٤-٢٤٥].

ثم أعلمهم أن الفرار من القتل لن ينجيهم من الموت فضرب لهم المثل بالذين (خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٞ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۗ) [سورة البقرة:٢٤٣]

ثم نفَّرهم من التشبُّه بملأ بني إسرائيل الذين (قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ

لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦) [سورة البقرة:٢٤٦]

الوجه الثالث:

أنهم لما سألوا عن النفقة بيَّن لهم أولًا ما يستحب من النفقة وهو ما ينفق على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل (يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥) [سورة البقرة:٢١٥] وبيَّن لهم ثانيًا ما يحرم منها وهو كل ما ينفق في معصية وفي إتلاف المال كالذي ينفق في الخمر الذي يتلف العقل، أو الميسر الذي يورث الكراهية والبغضاء، ثم بيَّن لهم ثالثًا هنا ما يجب منها وهو النفقة على الزوجات والأبناء والمطلقات.

الوجه الرابع:

أنه سبحانه لما أمر المسلمين بقتال المشركين ناسب ذلك أن يأمرهم بترك الزواج منهم ومصاهرتهم؛ وإلا فكيف يحثهم على قتالهم وإبادة فتنتهم ثم يشرع لهم وصلهم وبناء علاقات نسب وقربى ومصاهرة بينهم.

القسم الثالث:

من الآية (٢٤٣) إلى الآية (٢٥٣)

وغرضه: العودة للترغيب في القتال والحث عليه ببيان الحكمة منه وبالغ فضل الله على خلقه في تشريعه والحث عليه.

وقد رُدَّ عجز هذا القسم من المعنى على صدره كذلك، فبدأ القسم بتذكير الناس بفضل الله عليهم في تشريع القتال وحثهم عليه وخُتم به.

فصدره قول الله عز وجل: (*إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣) [سورة البقرة:٢٤٣]

وعجزه قول الله عز وجل: (وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾) [سورة البقرة:٢٥١]

أما آية (تلك الرسل) فهي عجز المعنى كله، وقد ذكرتها هناك عند الكلام عن عجز المعنى الذي يجمع الأقسام الثلاثة.

حكمة مشروعية القتال التي بينتها الآيات:

من عجيب أمر الحديث عن القتال في هذه الآيات أن جعلته من تمام فضل الله على الناس في البدء والانتهاء، ففي صدر المعنى ذمَّ الحق –سبحانه– فعل الذين كَتب عليهم القتال ففروا منه وخرجوا من ديارهم؛ جبنًا عن لقاء عدوّهم وحذرَ الموت، ووصف فعلهم ببطر النعمة وكفران الفضل فقال: إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾)، وفي العجز جعل القتال ودفع الناس بعضهم ببعض من تمام فضله –سبحانه– وعظيم نعمته التي بها يحفظ الأرض فقال: (وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾)، قال الشيخ الطاهر رحمه الله تعليقًا على هذه الآية: "هذه الآية عبرة من عبر الأكوان وحكمة من حكم التاريخ، ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية، وقبل إدراك ما في مطاويها"(١)، ثم بيَّن –رحمه الله– معنى كون القتال نعمة ربانية تستحق الشكر بيانًا لم يترك مطمعًا لأحد بعده في زيادة فقال: "خلق الله تعالى أسباب الدفاع [في المخلوقات كلها] بمنزلة دفع من الله يدفع مريد الضر بوسائل يستعملها المراد إضراره، ولولا هذه الوسائل التي خولها الله تعالى أفراد الأنواع، لاشتد طمع القوى في إهلاك الضعيف، ولاشتدت جراءة من يجلب النفع إلى نفسه على منافع يجدها في غيره، فابتزها منه، ولأفرطت أفراد كل نوع في جلب النافع الملائم إلى أنفسها بسلب

(١) التحرير والتنوير ٢/٥٠٠.

النافع الملائم لغيرها، مما هو له، ولتناسى صاحب الحاجة حين الاحتياج ما في بقاء غيره من المنفعة له أيضا. وهكذا يتسلط كل ذي شهوة على غيره، وكل قوي على ضعيفه، فيهلك القوي الضعيف، ويهلك الأقوى القوي، وتذهب الأفراد تباعًا، والأنواع كذلك حتى لا يبقى إلا أقوى الأفراد من أقوى الأنواع، وذلك شيء قليل، حتى إذا بقي أعوزته حاجات كثيرة لا يجدها في نفسه، وكان يجدها في غيره من أفراد نوعه، كحاجة أفراد البشر بعضهم إلى بعض، أو من أنواع أخر، كحاجة الإنسان إلى البقرة، فيذهب هدرًا..... وبهذا الدفاع حصلت سلامة القوي، وهو ظاهر، وسلامة الضعيف أيضا لأن القوي إذا وجد التعب والمكدرات في جلب النافع سئم ذلك، واقتصر على ما تدعو إليه الضرورة.....وأعظم مظاهر هذا الدفاع هو الحروب؛ فبالحرب الجائرة يطلب المحارب غصب منافع غيره، وبالحرب العادلة ينتصف المحق من المبطل، ولأجلها تتألف العصبيات والدعوات إلى الحق، والإنحاء على الظالمين، وهزم الكافرين"(١).

المعنى الثالث:

من الآية (٢٥٤) إلى الآية (٢٨٤)

وغرضه: الحث على الإنفاق في سبيل الله وبيان عظيم أجر المنفقين.

وهو من أول قول الله –ﷻ–: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤)[سورة البقرة:٢٥٤] إلى قوله سبحانه (لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤) [سورة البقرة:٢٨٤]

وقد بدأ هذا المعنى بمثل ما ختم به **فصدره** الأمر بالإنفاق استعدادًا للقاء الله

(١) التحرير والتنوير ٥٠٢/٢.

-عز وجل- الذي له ما في السماوات وما في الأرض فلا يملك لهم أحد من الله شيئًا، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥) [سورة البقرة:٢٥٤-٢٥٥]

وختم بمثل ذلك **فعجزه** يذكرهم بأن ملك السماوات والأرض لله وحده وأنهم صائرون إليه؛ ليحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة فليستعدوا لذلك، قال تعالى: (لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤) [سورة البقرة:٢٨٤].

صلة هذا المعنى بسابقه:

لما دعاهم في الآيات السابقة إلى بذل نفوسهم في سبيله -سبحانه- وألمح خلاله إلى بذل أموالهم بمثل قوله (وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥) [سورة البقرة:١٩٥] ومثل قوله: (يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥) [سورة البقرة:٢١٥]. ناسبه أن يخصَّ هذا المعنى بدعوتهم إلى بذل أموالهم في سبيله؛ تطهيرًا لنفوسهم؛ وبركة ونماء لأموالهم؛ وإعانة لضعفائهم وفقرائهم. ونقول كذلك: لما بين لهم ما يجب عليهم وما يستحب من النفقة في المعنى السابق، بيّن لهم هنا جزاء المنفقين في سبيله وما أعده لهم من حسنى جزائه وعظيم ثوابه.

لطيفةٌ في ردِّ عجز هذا المعنى على صدره:

من لطائف ردّ عجز هذا المعنى على صدره ورود قوله سبحانه: (وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١) [سورة البقرة:٢٨١] في سياق المعنى وفي أثنائه، ورد شبيهًا بالصدر وكأنه عجز له وليس كذلك؛ ولكنه جاء فاصلًا بين آخر الكلام عن الربا وبداية الكلام عن الدين، وإنما فُصل الكلام عن كتابة الدين عن سابقه بهذ الآية ولم يدخل في حيّز الإنفاق وحدوده على الرغم من أنه منه فالربا الذي لا يتأتى إلا بالدين؛ لأن ما سبق في تحريم الربا مزيَّل بالحث على الصبر على المدين؛ بل التصدق بقيمة الدين وبذله إن كان المدين معسرًا، فهو من جنس الإنفاق الذي يتحدَّث عنه سائر المعنى؛ لذا دخل في حيّزه وحدوده؛ ولكن لمَّا أخذت الآيات في الحديث عن كتابة الديون المستردة التي لا بذل فيها للمال ولا إنفاق إنما حق مردود لصاحبه فُصل الكلام بهذه الآية التي تحمل معنى الصدر والعجز نفسه. (وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١) [سورة البقرة:٢٨١]؛ تنبيهًا على انتقال المعنى إلى درجة أقل من الإنفاق وهو الإنفاق لا على سبيل العطية والهبة كالسابق؛ وإنما لأمدٍ ووقت معلوم، وهذا وإن كان من تفريج الكروب التي هي من حسنى الأعمال التي لها حسنى الجزاء عند الله –ﷻ– إلا أنها ليست من جنس الصدقات ولا الإنفاق في سبيل الله التي تتحدَّث عنه الآيات السابقة.

المبحث الثالث

دور رد الأعجاز على الصدور في إظهار خفي مناسبات سورة البقرة

خصصت هذا المبحث لجمع ما قد يخفى تناسبه من معاني سورة البقرة وكان لرد الأعجاز على صدورها دورٌ في الكشف عن وجه تلاؤمه وتناسبه، وقد وجدت ذلك في ثمانية مواضع.

الموضع الأول:

(ذكر قصة آدم عليه السلام في سياق دعوة الناس لاتباع هدى الله)

وردت هذه القصة في المعنى الأول من المعقد الأول محصورة بين صدر وعجز يدعوان الناس لاتباع هدى الله – ﷻ– وينذر من زاغ وكفر، وقد يدق وجه مناسبتها لسياقها ويلطف؛ لكن المتدبر المتأمل يرى مناسبتها جليَّة حين يجدها مسبوقة بقول الحق سبحانه: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾) [سورة البقرة:٢٨-٢٩]، بل وبقوله قبلها: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾) [سورة البقرة:٢١-٢٢] فلما امتن سبحانه عليهم بخلقه لهم، وتعجب من كفرهم به وهو خلقهم وخلق لهم ما في السماوات وما في الأرض، ناسب ذلك تمام المناسبة أن يبين لهم كيف كان خلقهم وكيف فضلهم على جميع خلقه حين أمر الملائكة –وهم من أشرف خلقه– أن يسجدوا لأبيهم آدم –عليه السلام–، وأن يحذرهم من الشيطان عدوهم وعدو أبيهم، الذي أخرجه أولًا من الجنة بوسوسته له، ثم ها هو يوقعهم في الكفر والزلل.

الموضع الثاني:

(ورود قصة البقرة في سياقها الذي وردت فيه)

وهي الآيات من أول قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾) [سورة البقرة:٦٧] فالسياق الذي وردت فيه هذه القصة آخذٌ في بيان جحود بني إسرائيل وكفرهم واستحبابهم العمى على الهدى، وعصيانهم ومجادلتهم لأنبيائهم، وتبديلهم نعمة الله كفرًا، ومخالفتهم شرعه وتركهم تكليفاته حين خالفوا أوامره وأتوا نواهيه وعصوا رسله؛ ولكن قد يخفى وجه مناسبة قصة البقرة لهذا السياق، ويزيد الأمر خفاء أن سميت السورة بسورة البقرة؛ إشارة إلى أن هذه القصة تحوي سرَّ السورة ومحورها.

وقد أشرت إلى سر ذلك قبلًا عند الحديث عن مقصود السورة، من أن ذكر قصة البقرة في هذا السياق موعظةٌ لمن يسمع من المؤمنين الذين ستتلى عليهم تكليفات دينهم عما قليل؛ لئلا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل قبلهم من مماطلة في قبول تكليفاتهم ومجادلة أنبيائهم، وكأن الحق – سبحانه– يقول لنا: خذوا ما آتيتكم بقوة ولا تجادلوا فيه كما فعلت بنو إسرائيل قبلكم، حتى بلغ بهم الغي والضلال أن يجادلوا نبيّهم حتى في ذبح بقرة!!

الموضع الثالث:

قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وردت هذه الآية في مطلع المعنى الثالث من المعقد الأول، وهو آخذ في بيان حقد أهل الكتاب وحسدهم وغدرهم وخستهم، وقد يسأل سائل: ما علاقة ذلك بالبدء بهذا المعنى؟!

أقول: إن هذه الآية جاءت نموذجًا ودليلًا عمليًّا لخسَّتهم حين يضمرون سبَّ رسول الله –ﷺ– ويلوون به ألسنتهم، ساقه الحق – سبحانه–

في مطلع كلامه عن حسدهم وغدرهم وطعنهم في الإسلام والمسلمين، قبل ذكر المقصود، من باب ذكر الدليل قبل المستدل عليه وهذا طريق من طرق الخطابة كما يقول الإمام الطاهر تعليقًا على منه قوله سبحانه: (۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ) قال:إنها وقعت مما بعدها "موقع الدليل قبل ذكر المقصود وهذا طريق من طرق الخطابة أن يقدم الدليل قبل المستدل عليه لمقاصد"(١).

الموضع الرابع:

قوله تعالى: (وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ)

ومن تلك المواضع التي قد يخفى تناسبها وتعددت أقوال سلفنا الصالح من المفسرين فيها –رضوان الله عليهم– قول الله –ﷻ–: (وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤) [سورة البقرة:١١٤]

ذلك لأن بعض المفسرين –رضوان الله عليهم– رجَّحوا أن يكون الوعيد في هذه الآية للمشركين؛ لأنهم القائمون على أمر البيت الحرام وهم المانعون لمن شاءوا، قال الشيخ الطاهر: "وهذا استطراد واقع معترضًا بين ذكر أحوال اليهود والنصارى لذكر مساوئ المشركين في سوء تلقيهم دعوة الإسلام الذي جاء لهديهم ونجاتهم، والآية نازلة في مشركي العرب ..... وهي تشير إلى منع أهل مكة النبي –ﷺ– والمسلمين من الدخول لمكة"(٢)؛ لكنها وردت في البحث في المعنى الثالث من المعقد الأول كذلك المتحدث عن حقد أهل الكتاب وقد علمنا أن سياق هذا المعنى آخذ في التحذير من حقد

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٧٥.
(٢) التحرير والتنوير ١/٦٧٩

أهل الكتاب وحسدهم ومحاولاتهم الطعن في هذا الدين؛ ابتغاء صرف أهله عنه، وردّهم إلى الكفر بعد الإيمان، وأن من أعظم ما طعنوا فيه أمر القبلة، فالآيات بدءًا من قوله تعالى: (ما ننسخ) إلى نهاية المعقد ردٌ لإفك أهل الكتاب وبيان لزيفهم، وإظهار لباطلهم وكذبهم وكتمانهم الحق الذي يعلمونه، فإذا علمنا ذلك بان لنا أن هذه الآيات نازلة فيهم كذلك؛ تقبيحًا لفعلهم وتسفيهًا لأحلامهم ووعيدًا لهم بخزي الدنيا وعذاب الآخرة، حين حاولوا صرف المؤمنين عن التوجه إلى المسجد الحرام، وفتنتهم عن دينهم، وصدَّهم عن قبلتهم ووجهتهم التي أمرهم بها ربهم صدًّا بالقول أو الفعل، قال الفخر الرازي: "وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم وهو أن يقال: إنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضا في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضا في تخريب مسجد الرسول –ﷺ– لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه، وهذا التأويل أولى مما قبله، وذلك لأن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضا بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدهم الرسول عن المسجد الحرام، وأما حمل الآية على سعي النصارى في تخريب بيت المقدس فضعيف أيضًا على ما شرحه أبو بكر الرازي، فلم يبق إلا ما قلناه"(١).

ويرجح ذلك تعقيب هذه الآية بقول الله –عزَّ وجلَّ–: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة:١١٥] فهي واردة في السياق ذمًا لمن أراد صرف المؤمنين عن قبلتهم والطعن في

(١) مفاتيح الغيب ١١/٤.

تحوُّلهم من قبلة إلى قبلة، فالآية ترد عليهم زيفهم وباطلهم بأن المشرق والمغرب له سبحانه يصرف عباده أي جهة شاء، وهو المعنى نفسه الذي ختم به المعقد هناك، فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...الآية﴾ [سورة البقرة:١٧٧].

الموضع الخامس:

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

هذا الموضع الذي افتتحت به هذه الآية الذي يتحدث عن إبراهيم –عليه السلام– وبنائه البيت جاء وسط سياق متصل يتحدث عن ضلال أهل الكتاب عامة وبني إسرائيل خاصة، وهو من أغمض المواضع وأخفاها مناسبة لسياقه، وقد كثر كلام سادتنا –رضوان الله عليهم– فيه، وتعددت اجتهاداتهم في بيان وجه تناسبه وتلاؤمه مع سياقه، فكثير منهم على أن الآية انتقال لمعنى جديد في بيان مكانة إبراهيم عليه السلام، قال الإمام الرازي: "شرع سبحانه هاهنا في نوع آخر من البيان وهو أن ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله، والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل"(١)، وقال الشيخ الطاهر: "انتقل إلى توجيه التوبيخ والتذكير إلى العرب الذين يزعمون أنهم أفضل ذرية إبراهيم وأنهم يتعلقون بملته، وأنهم زرع إسماعيل وسدنة البيت الذي بناه"(٢).

ولقد كان لرد الأعجاز على الصدور دور مهم كذلك هنا في بيان وجه مناسبة هذا الموضع واتصاله بسابقه؛ لأنه لما حدد لنا حدود المعنى صدرًا

(١) السابق ٣١/٤.

(٢) التحرير والتنوير ٦٩٩/١

وعجزًا نبه على أن هذا الموضع من حاق المعنى وليس استفتاحًا لمعنى جديد أو انتقالًا لغرض آخر، فدعانا بذلك لتدبر مناسبته واتصاله في هذا السياق المتصل وهو ما هدانا إليه فقه جهة اتصال المعنى واتساقه مع سابقه وتاليه، وبان ذلك في أمرين:

أولهما: أن الآيات السابقة لما اشتملت على توبيخ أهل الكتاب عامة وبني إسرائيل خاصة فناداهم الحق قائلًا: (يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ) [سورة البقرة:١٢٢] مذكرًا لهم بنعمته عليهم حين فضلهم على العالمين وأخرجهم من نسل أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وجعل فيهم الرسل والأنبياء، عاد فذكَّرهم بالآخرة التي لن تغني عنهم فيها شفاعة إبراهيم ولا غيره ولن تغني عنهم بنوَّتهم له من الله شيئًا، فقال: (وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ * وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤) [سورة البقرة:١٢٣-١٢٤] فلا تظنون أنكم ناجون لمجرد أنكم أبناء إبراهيم وأحفاده فإن إبراهيم –عليه السلام– نفسه لما طلب الإمامة لذريّته والنجاة لعقبه، أجابه ربه قائلًا: (لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤).

وكل ما ورد بعد هذه الآية يرشّح تلك المناسبة ويؤكدها:

- من مثل دعاء إبراهيم –عليه السلام– الهداية لعقبه في قوله سبحانه: (رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩)
- ومن مثل ذم من انحرف أو رغب عن ملة إبراهيم: (وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١)

- وكذا وصيته ويعقوب لبنيهم ألا يحيدوا عن الإسلام: (وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣) [سورة البقرة:١٢٨-١٣٣]

ثانيهما: ما ذكره الشيخ الطاهر من أن الآيات تمهيد للأمر باستقبال الكعبة وترك ما عداها حيث قال: "وفي هذه الآية مقصدٌ آخر وهو تمهيد الانتقال إلى فضائل البلد الحرام والبيت الحرام، لإقامة الحجة على الذين عجبوا من نسخ استقبال بيت المقدس وتذرعوا بذلك إلى الطعن في الإسلام بوقوع النسخ فيه، وإلى تنفير عامة أهل الكتاب من اتباعه لأنه غير قبلتهم ليظهر لهم أن الكعبة هي أجدر بالاستقبال وأن الله استبقاها لهذه الأمة تنبيها على مزية هذا الدين"(١).

الموضع السادس:

قوله تعالى: (۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)

ومناسبة هذه الآية لسياقها من أخفى المناسبات وأغمضها في هذه السورة؛ بل هي أخفاها وأغمضها على الإطلاق، ذلك أنه مسبوق بتوجيه الله -عز وجل- للمؤمنين بالصبر على أذى أهل الكتاب وطعنهم في الإسلام، ومعقَّب بكلام عن عاقبة كاتمي العلم منهم وهم يعلمون، فما علاقة الكلام عن الحج والعمرة أو السعي بين الصفا والمروة بهذا السياق المتصل قبله وبعده؟!!

فظاهرُ ما تشير إليه الآية أنها حديث عن شعيرة من شعائر الحج

(١) السابق ١/٧٠١

والعمرة وهي السعي بين الصفا والمروة؛ لكن باطن الأمر يطوي مناسبة رائقة تكمن في الحكمة من السعي بين الصفا والمروة وليس في التكليف به.

ذلك أنه سبحانه لما أمر المؤمنين بالصبر على أذى أهل الكتاب في الآيات السابقة أعلمهم أن ذلك الأذى ابتلاءٌ منه لهم؛ ليَبِينَ من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه كما قال بعدُ، وأن هذا الابتلاء لا يساوي شيئًا مما سيلقون في سبيل دعوتهم؛ بل إنهم ليُبلونَّ (بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ) [سورة البقرة:١٥٥] والنجاة والفلاح في ذلك لمن صبر واستعان به سبحانه حتى يأتيه الفرج والبشارة: (وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥)، ثم يأتي قوله سبحانه: (۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨) [سورة البقرة:١٥٨] ليقول لهم إن أردتم مثالًا على بشارة ونجاة وفلاح من صبر على الابتلاء، فليس عليكم جناح أن تطوَّفوا بين الصفا والمروة لتتذكروا ما حدث لأمكم هاجر التي ابتليت بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات فصبرت حتى أتتها البشرى عينًا ترويها ووليدها وتروي الناس إلى يومهم هذا، وتجمع حولها أنفسًا تؤنسها وتذهب وحشتها وتبدِّل خوفها أمنًا.

وقد فطن إلى تلك المناسبة وأومأ إليها من طرف خفيٍّ الفخر الرازي –وكان ﷺ صاحب حسٍ مرهف بمواقع المعاني وعلاقاتها– فقال: "إنه تعالى لما قال: (وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ) قال: (۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ) وإنما جعلهما كذلك لأنهما من آثار هاجر وإسماعيل مما جرى عليهما من البلوى واستدلوا بذلك على أن من صبر على البلوى لا بد وأن يصل إلى أعظم الدرجات وأعلى

المقامات"(١).

الموضع السابع:

من أول قوله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ.. ﴿٢٠٧﴾)

إلى قوله تعالى: (أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ....﴿٢١٤﴾)

قد يخفى وجه اتصال آيات هذا المعنى بمقصود المعنى الذي وردت فيه، ذلك أنها وردت في المعنى الثاني من المعقد الثاني في سياق آيات مزجت تشريع القتال بتشريع الحج والعمرة؛ لأن أداء الحج والعمرة –كما قلت هناك– كان محفوفًا بخطر تعرض المشركين لهم والاعتداء عليهم، فجاءت هذه الآيات تخلُّصًا بديعًا رائقًا من الكلام في الحج إلى العودة لذكر القتال والحث عليه وإنفاق الغالي والثمين في سبيل مرضاة الله وفي سبيل رفعة هذا الدين.

فالله –سبحانه– لما ذكر أجناس الذاكرين في الحج ودرجاتهم عنده، بين كافرٍ لا يريد إلا الدنيا: (فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾) [سورة البقرة:٢٠٠] ومسلمٍ يجمع حَسَنتَي الدنيا والآخرة: (وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾) [سورة البقرة:٢٠١] ومنافقٍ أظهر إيمانًا وقولًا حسنًا وأضمر كفرًا خالصًا وخصامًا ولددًا: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾) [سورة البقرة:٢٠٤] تخلَّص بذكر صنف من المؤمنين هم الأصفياء الذين يبذلون أنفسهم –وهي أغلى ما يملكون– في سبيل مرضاة الحق سبحانه؛ طلبًا لرضوانه وحسنى جزائه، (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾) [سورة البقرة:٢٠٧] وفي هذا حثٌّ للمؤمنين على

(١) مفاتيح الغيب ١٣٤/٤.

الجهاد في سبيله، وبلوغ تلك المرتبة التي رضي الله عنها وشملها برأفته ورضوانه، ثم تدعوهم الآيات للتمسك بتعاليم الإسلام مهما شقَّت عليهم أو كرهتها نفوسهم كتشريع القتال، وألا يكونوا كبني إسرائيل الذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا وضلالًا وإضلالًا، أو كالكافرين الذين زُيِّنت لهم الحياة الدنيا فقدموها على الآخرة وركنوا لزينتها وشهواتها، وأخذوا يسخرون من الذين آمنوا، ثم صرَّحت الآيات بما أضمرته من حثٍّ على الجهاد والصبر على البأساء والضراء (أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤) [سورة البقرة:٢١٤].

الموضع الثامن:

(ورود آية الكرسي وما بعدها من كلام عن البعث في سياق كلام متصلٍ عن الإنفاق في سبيل الله)

فقد وردت آية الكرسي والكلام عن البعث بعدها في قصتي إبراهيم والذي مرَّ على القرية في سياق حديث متصل قبله وبعده عن الإنفاق، والكلام عن الإنفاق في هذا المعنى ظاهر التناسب بيّن التلاؤم قد لا يشذ عنه شيء إلا هذه الآيات من أول قوله –سبحانه–: (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ..... الآيات)[سورة البقرة: ٢٥٥] إلى قوله تعالى: (وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠)[سورة البقرة: ٢٦٠].

بيان ذلك أن الحق –سبحانه– لما حثَّ المؤمنين على الإنفاق في سبيله قبل أن يأتي يوم يُبعثون فيه فيرجعون إليه، ولا يستطيعون تدارك شيءٍ مما فرَّطوا فيه، فلا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ)، ناسب ذلك أمران:

الأمر الأول: أن يبين لهم جلال الموقف بين يدي الحي القيوم الذي لا يجرؤ أحدٌ على الحديث في حضرته أو الشفاعة عنده إلا بإذنه. وهو ما استقلت ببيانه أية الكرسي فقال –تعالى–: (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ)، ثم أعقبت آية الكرسي قوله سبحانه: (لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾) [سورة البقرة:٢٥٦] لأن "ما اشتملت عليه الآية السابقة من دلائل الوحدانية وعظمة الخالق وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر ولا إكراه، ومن شأنه أن يجعل دوامهم على الشرك بمحل السؤال: أيُتركون عليه أم يُكرهون على الإسلام، فكانت الجملة استئنافًا بيانيًا"(١).

الأمر الثاني: أن يبيّن لهم أمر البعث وماهيته وكيفيته بيانًا ظاهرًا لا شك فيه ولا التباس، فضرب لهم ثلاثة أمثلة متدرّجة في بيان مفهومه وكيفيته:

١. **المثال الأول:** لكافر جاحد لا يفقه للبعث معنى سوى قتل بريء أو العفو عن محكوم عليه بالموت، فيبين بذلك جهله ومغالطته، (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ

(١) التحرير والتنوير ٣/٢٥.

ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾).

٢. **المثال الثاني**: لمؤمن بالبعث ولكنه لما بدت منه أمارات التعجب والاستبعاد أراه –سبحانه– كُنهَه عيانًا في نفسه وحماره ليعيه، قال تعالى: (أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ).

٣. **المثال الثالث**: لنبي مؤمن موقن؛ لكنه سأل المعاينة ليطمئن قلبه فيتحقق علمه "وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة وانكشاف المعلوم انكشافًا لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشبه عن العقل"(١) قال الحق: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾) [سورة البقرة:٢٦٠].

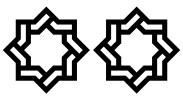

(١) التحرير والتنوير ٣٩/٣.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الماتعة مع كتاب الله –عز وجل– يكون قد بان لنا أن ردَّ الأعجاز على صدورها في القرآن الكريم ركيزة مهمة من ركائز بناء معانيه، ومن أهم السبل الهاديات إلى فقه مقاصد سوره وإظهار خفي مناسباته.

وأن الأمر فيها لا يقتصر على رد أعجاز السور على صدورها الذي سبق أن تحدث عنه بعض سادتنا وعلمائنا؛ بل الأعجب من ذلك والذي أثبته البحث أنه يشمل معاقد السورة ومعانيها الجزئية.

والبحث وإن كان قد قصر التطبيق على سورة البقرة فهذا لضيق حدود البحث التي تجبرنا على مراعاة عدم الإسهاب أو الإطالة؛ وليس لتفرد السورة بتلك الظاهرة عن سواها من سور القرآن، فقد تتبعتها في كثير من السور القرآنية فوجدتها شديدة الظهور في غير سورة البقرة، ولولا خوف الإطالة لتتبعت ذلك ما استطعت في كتاب الله –ﷻ–؛ ولكن عزائي أني عازم على تتبع ذلك واستقصائه في غير هذا البحث، أدعو الله سبحانه أن ييسر لي أمري ويعينني عليه.

وفي الختام أوصي بأن نتتبع تلك الظاهرة المعنوية في كلام أفصح العرب ﷺ وفي شعر من نزل فيهم القرآن ليُعلم هل كانت حاضرة في كلامهم وفي بناء معانيهم، أم هي خصوصية اختص بها كتاب الله –ﷻ– وتفرد بها عن سائر كلام الناس.

وفي الختام كما في البدء أسأله –سبحانه– أن يتقبل مني جهدي الضعيف وبضاعتي المزجاة، وأن يغفر لي زللي وسهوي وتقصيري، وأن يستعملني لخدمة دينه وكتابه ولا يستبدلني، .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. أسباب النزول للواحدي تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان الناشر: دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
٣. آل حم غافر وفصلت دراسة في أسرار البيان، أ د. محمد محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٤. الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن ا د. محمود توفيق سعد، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، رقم الإيداع ١٤٦٥٤/٢٠٠٣.
٥. البديع لابن المعتز طبعة دار الجيل الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
٦. البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي، تحقيق محمد شعباني، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب عام ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.
٧. تفسير التحرير والتنوير الناشر دار سحنون – تونس، الطباعة دار مصر للطباعة ١٩٩٧م.
٨. التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلَّم، طبعة جامعة الشارقة الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
٩. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، مراجعة وتعليق أ د. محمد إبراهيم الحفناوي، خرج أحاديثه د. محمود حامد عثمان، طبعة دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
١٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

١١. العزف على أنوار الذكر أ د. محمود توفيق، طبعة دار الكتب الجامعية الطبعة الأول عام ١٤٢٤هـ.
١٢. علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية نظرية – تطبيقية، أ د. إبراهيم صلاح الهدهد، الطبعة الأولى لمكتبة وهبة عام ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.
١٣. علم البديع عند الشيخ محمد محمد أبو موسى، للعلامة الدكتور محمود توفيق سعد، طبعة مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.
١٤. في ظلال القرآن الناشر دار الشروق الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١٥. مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، للإمام جلال الدين السيوطي، قرأه وتممه: د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.
١٦. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعي، طبعة مكتبة المعارف بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١٧. مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
١٨. مفتاح العلوم للإمام السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
١٩. المواريث في اليهودية والإسلام دراسة مقارنة د. عبد الرازق قنديل، طبعة مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة عام ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٢٠. نظام الأسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام ا د. صابر أحمد طه، طبعة نهضة مصر إبريل ٢٠٠٠م.

٢١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين البقاعي، طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

المحتويات

المقدمة ٨٦٨١
المبحث الأول ٨٦٨٥
تأصيلٌ للمصطلح وبيانٌ للفكرة ٨٦٨٥
المبحث الثاني ٨٦٩٥
رد الأعجاز على صدورها في سورة البقرة ٨٦٩٥
المطلب الأول: ٨٦٩٥
تحرير مقصود السورة: ٨٦٩٥
المطلب الثاني ٨٧٠٣
رد الأعجاز على صدورها في سورة البقرة ٨٧٠٣
أولًا: رد عجز السورة على مطلعها: ٨٧٠٤
ثانيًا: رد أعجاز معاقد السورة ومعانيها الجزئية على صدورها: ٨٧٠٥
المعقد الأول ومعانيه الجزئية ٨٧٠٥
من الآية (١) إلى الآية (١٧٧) ٨٧٠٥
غرض هذا المعقد ودوره في بناء مقصود السورة: ٨٧٠٥
ردُّ عجز المعقد على صدره: ٨٧٠٥
المعنى الأول: ٨٧٠٩
من الآية (٥) إلى الآية (٣٩) ٨٧٠٩
المعنى الثاني: ٨٧١٠
من الآية (٤٠) إلى الآية (١٠٣) ٨٧١٠
المعنى الثالث: ٨٧١١
من الآية (١٠٤) إلى الآية (١٧٧) ٨٧١١
المعقد الثاني للسورة ومعانيه الجزئية: ٨٧١٤
من الآية (١٧٧) إلى الآية (٢٨٦) ٨٧١٤
غرض هذا المعقد ودوره في بناء مقصود السورة: ٨٧١٤
ردُّ عجز المعقد على صدره: ٨٧١٥
المعنى الأول: ٨٧٢١
من الآية (١٧٧) إلى الآية (١٨٩) ٨٧٢١
لطيفةٌ في ردِّ عجز هذا المعنى على صدره: ٨٧٢٦
المعنى الثاني: ٨٧٢٧
من الآية (١٩٠) إلى الآية (٢٥٣) ٨٧٢٧
لطيفةٌ في ردِّ عجز هذا المعنى على صدره: ٨٧٢٨
القسم الأول: ٨٧٢٩
من الآية (١٩٠) إلى الآية (٢١٨) ٨٧٢٩
القسم الثاني: ٨٧٣١
من الآية (٢١٩) إلى الآية (٢٤٢) ٨٧٣١
جهات تناسب هذا القسم وائتلافه مع سابقه: ٨٧٣١
القسم الثالث: ٨٧٣٤
من الآية (٢٤٣) إلى الآية (٢٥٣) ٨٧٣٤
المعنى الثالث: ٨٧٣٦
من الآية (٢٥٤) إلى الآية (٢٨٤) ٨٧٣٦
صلة هذا المعنى بسابقه: ٨٧٣٧

لطيفةٌ في ردِّ عجز هذا المعنى على صدره: ٨٧٣٨
المبحث الثالث ٨٧٣٩
دور رد الأعجاز على الصدور في إظهار خفي مناسبات سورة البقرة..... ٨٧٣٩
الموضع الأول: ٨٧٣٩
(ذكر قصة آدم عليه السلام في سياق دعوة الناس لاتباع هدى الله) ٨٧٣٩
الموضع الثاني: ٨٧٤٠
(ورود قصة البقرة في سياقها الذي وردت فيه) ٨٧٤٠
الموضع الثالث: ٨٧٤٠
قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ) ٨٧٤٠
الموضع الرابع: ٨٧٤١
قوله تعالى: (وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ)..... ٨٧٤١
الموضع الخامس: ٨٧٤٣
قوله تعالى: (۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤) ٨٧٤٣
الموضع السادس: ٨٧٤٥
قوله تعالى: (۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) ٨٧٤٥
الموضع السابع: ٨٧٤٧
من أول قوله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ.... ٢٠٧) إلى قوله تعالى: (أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ....٢١٤) ٨٧٤٧
الموضع الثامن: ٨٧٤٨
(ورود آية الكرسي وما بعدها من كلام عن البعث في سياق كلام متصلٍ عن الإنفاق في سبيل الله) ٨٧٤٨
الخاتمة ٨٧٥١
المصادر والمراجع ٨٧٥٢
المحتويات ٨٧٥٥